حقيبة سفر

مجموعة قصصية

سُهير المصطفى

حقيبة سفر

سهير المصطفى

Bu kitap veya herhangi bir bölümü, yayıncının ve yazarın önceden izni alınmadan hiçbir şekilde yayınlanamaz, geri alma yöntemiyle kopyalanamaz, hiçbir şekilde elektronik, fotokopi ile iletilemez veya başka bir dile çevrilemez.

This book or any part of it may not be published, reproduced by retrieval, transmitted in any electronic form, photocopied or translated into another language without the prior consent of the publisher and author.

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نسخه عن طريق الاسترجاع أو نقله بأي شكل إلكترونيًا أو تصويره أو ترجمته إلى لغة أخرى دون الحصول على موافقة مسبقة من الناشر والمؤلف.

الكتاب: **حقيبة سفر**

المؤلف: **سُهير المصطفى**

حقيبة سفر

النوع: مجموعة قصصيّة

الطبعة الأولى **istanbul - 2022**

Isbn: GGKEY:PWZ5XYT2E9Q

الناشر: آيلا للنشر والتوزيع

الغلاف: **آيلا للنشر الإلكترونى**

كل الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب، تعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يتحمل الناشر أدنى مسؤولية

جميع الحقوق محفوظة

AYLA

للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

2022

سهير المصطفى **حقيبة سفر**

الإهداء

إلى قريتي الصغيرة التي بُسطت أرضها على كتف جبل، إلى شروقها الجميل وغروبها الأجمل، إلى حارات الطفولة ولعبة (الحجلة) التي كنا نرسم خطوطها على الإسفلت، إلى الأشجار التي تحملتنا أغصانها والأبواب التي طرقناها وهربنا، وإلى بائعة الخبز التي حفظتُ تقاسيم وجهها، ونبرة صوتها، إلى نبع الماء الذي اعتدنا على سماع صوت محركه وإلى ساقيته التي كنا نضع بها أقدامنا وتضيع أحذيتنا فيها، إلى بساتين الكروم التي ضعنا بين جدرانها، ورافقنا الأجداد لقطف محاصيلها.. إلى كل تفصيل وكل ذكرى قضيتها في تلك القرية..

أهدي هذا الكتاب.

سهير المصطفى

المقدمة

ذات يوم قلت لصديقتي مازحةً: تخيلي أن نضيع في شوارع غريبة ونلتقي.

أولاد إحدانا لا يفهمون ما يقوله أولاد الأخرى، بسبب اختلاف اللغة

أجابتني منفعلة: لا تقوليها! "فال الله ولا فالك" لن يحدث أي شيء يخرجنا من بيوتنا من أرضنا، لن يحدث أليس كذلك؟

لكنَّه حدث يا صديقتي، حدث.. ولم يبق إلا أن نلتقي سوياً وأذكّرك بذلك اليوم.

سهير

حكاية ألم سورية

وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر

محمود درويش

في ذلك اليوم الذي غدا أشبه بالطامة، وبعد ابتعاد الطائرات التي أفرغت حمولتها فوق رؤوسنا لمدة عشر ساعات متواصلة بالتناوب مع ضرب الصواريخ من مدفعية الجبل المطل على البلدة، تفقدنا أنفسنا ومن حولنا أننا مازلنا بخير جسدياً، عدا عن شظايا الخوف التي انغرست في قلوبنا، وقبيل غروب الشمس نزل أبي مسرعاً إلى السيارة التي ركنها في كراج المنزل ليتفقد ما بها من وقود وجاهزيتها للانطلاق. نادى على من في البيت جميعاً أن يصعدوا إلى السيارة لينطلق بهم إلى البلدة المجاورة، قبل أن تعود الغارات الجوية والمدافع بصب جام غضبها على البيوت بعد أن اقتحمت فصائل متعددة مستودعاً للذخيرة بالقرب من القرية.

كانت السيارة صغيرة لا تتسع إلا لأربعة أشخاص، ولكن كل من في المنزل صعد إليها خوفاً وهرباً من كارثة محتملة الحدوث حينما يحل المساء. وقفت كالصنم لا أعرف ماذا سأفعل، زوجي يحثني على الصعود والهرب معهم، أمي تنظر إليّ بعينين دامعتين، وأبي يناديني غاضباً لجمودي بلا حراك ويقول لي (هيا لم يعد معنا وقت اصعدي أنتِ والبنات وزوجك شاب بدبر حاله ويلحقنا). لم

ألبّي نداء أبي وشجعته على المسير بلا انتظار فأنا لن أذهب معهم وسألحق بهم مع زوجي وأهله، والسبب أن السيارة الصغيرة وقد انحشروا داخلها، وكانت إحدى بناتي قد صعدت معهم وجلست في حضن أختي الوسطى، والأخرى قد حشرت نفسها والتصقت بالنافذة، والسبب الآخر هو أني لم أستطع التفكير بالنجاة وحدي دون زوجي وأهله، على الرغم من أن الحرب كيوم النشور، يفر المر من أخيه وأمه وأبيه. لم أستطع الفرار على الرغم من هول ذاك اليوم، فكيف له يوم البعث أن يكون؟

نزلت ابنتي وانضمت إلينا، ثم دار محرك السيارة ودارت الدنيا حولي وسارت بهم مسرعة وبقيت أتبعها بعيني وقلبي حتى اختفت عن ناظري. أحكمت قبضتي على أيدي بناتي، وتوجهنا إلى حيث التجأ أهل زوجي في حارة أخرى تبعد حوالي ثلاثة كيلومترات عن منزل أهلي.

كان سكان البلدة في حالة رعب واضطراب وهيجان، والأغلبية كانوا راغبين بالهروب خوفاً على أولادهم وأرواحهم.

هؤلاء يصعدون جراراً زراعياً وآخرون سيارة كبيرة لنقل الخضار، وغيرهم في باصات نقل صغيرة ولوحات الرعب مرسومة على وجوههم, وبكاء الأطفال والنساء يملأ المكان.

وقع ناظري على طفلة قد لُفت يدها بقماش أبيض وكانت تصرخ من الألم، يحملها والدها ويضعها في السيارة مع الكثير مع الفارين، قيل أنها جرحت عند محاولة شاب في مقتبل العمر ادخالها إلى الملجأ أثناء غارة جوية. أصيبت بيدها واستشهد الشاب الذي لم يمض على زفافه أسبوع واحد. وعلى بعد أمتار كان شابان يحملان بين ذراعيهما عجوزاً مقعدة أخرجوها من قبو المنزل ليضعوها في عربة الجرار الزراعي قبل أن تمتلئ بالناس.

تابعنا المسير وقلبي يخفق ألماً على هؤلاء الأبرياء الذين يدفعون ثمن حرب لم تكن بالحسبان. لن أتحدث كيف مضت تلك الليلة المرعبة، ولا كيف أمطرنا الجيش بالقذائف, ولا كيف كانت أمي تتصل بي كلما سمعت صوت انفجار، هدّأتُ من روعها بألا تقلق فكل شيء على ما يرام وأننا بخير ننتظر طلوع الفجر لنوظب أنفسنا وننطلق إليهم. لم نكن وحدنا بل مازال أكثر من نصف سكان البلدة في منازلهم أو باتوا ليلتهم في الأقبية, وسيسابقون الشمس في شروقها كي يغادروا ساحة الحرب بأمان مع أطفالهم.

البعض لا يملك سوى قدميه ليذهب بهما إلى الملاذ الوحيد المفتوح، بعد إغلاق جميع منافذ البلدة كي لا يتسلل المسلحون كما يصفوهم إلى مناطق أكثر أهمية لهم وأكثر حساسية لاختلاف الطائفة التي وضعوا خطاً أحمر للاقتراب منها منذ بداية الحرب، لتبقى الطائفة

الأكبر هي المعرضة لكل أنواع البلاء, ولا أسف على مقتل العشرات منهم فالأهم أن ينتصر الفصيل المقاتل أمام مقاتلي الدولة أو أن يحدث العكس.

في ساعات الفجر الأولى، اجتمعنا سوياً لنبتّ في أمر الرحيل، والذي هو بالأصح الهروب والنجاة من موتٍ محتم، بضربات الطائرات التي تلقي حممها عشوائياً، فتصيب البيوت دون تمييز. وبلدتنا لم تكن على قدرٍ من الصلابة لتحتمل أية غارة، أو أن تصمد بيوتها أمام الصواريخ الروسية. اقتنعت أم زوجي على مضض، لكنها اشترطت أن نعود إلى المنزل ونجمع بعض الأغراض منه، ونحملها معنا إلى بلد اللجوء المجاور. لم تكن الأجواء تسمح بتنقل السيارات بحرية في الشوارع، فيمكن أن تتعرض للخطر أثناء العودة إلى البيت القائم في حارة بعيدة متطرفة وقريبة من الجبل الذي تتم محاولة السيطرة عليه، فالأمر أشبه بالانتحار، لكني قبلت لكيلا يكون لها أية حجة في البقاء، أو تعتقد أني ألح على اللحاق بأهلي فقط.

كان هذا المنزل آخر ما بقي لنا من تركة عمي بعد مغادرتنا لبيوتنا في مدينة حمص منذ بداية الحراك، وقد علمنا من بعض الأشخاص أنها نهبت مباشرة وبيع أثاثها، بل لم يعد لنا أمل في العودة إلى حمص حيث تم الاستيلاء على كل منازل الحي هناك.

إنّ مغادرة الناس لبيوتهم وخاصة كبار السن، أشبه باقتلاع شجرة من جذورها حتى وإن كان في بقائهم عرضة للموت .

كنت أدون في دفتر مذكراتي الكثير مما مر معنا في مدينة حمص، لكنه بقي في بيتي مع الكثير من دفاتري وكتبي وأشيائي التي لم أحمل منها أي شيء، لأنّا كنّا نعتقد أنها بضعة أيام ونعود, ولم نكن نعلم بأنّا سنغادره بكل ما فيه من أثاث وذكريات إلى الأبد.

ركبنا في سيارة السكودا التي تركها عمي (والد زوجي) بعد وفاته قبل بداية الثورة بثلاث سنوات، والتي لا تتسع إلا لراكب واحد بجانب السائق، فصعدت والدة زوجي بجوار ابنها الأصغر، وأنا جلست في الصندوق المغلق للسيارة مع أخت زوجي الصغرى. لم نكد نصل إلى البيت حتى عادت الطائرات وبدأت بجولتها الصباحية في تمشيط المنطقة ورميها بالصواريخ والقذائف..

لم يكن جمع ما نحتاجه والتفكير بما يلزمنا، بالأمر السهل؛ كان يتطلب منا سرعة في العمل والبديهة على حد سواء. جمعنا ما استطعنا جمعه من أشياء مهمة كبعض الأغطية، والمونة وجرة غاز.. الناس الذين لم يتمكنوا من ترك منازلهم في اليوم السابق، خرجوا هلعاً دون أحذية راكضين على التراب وفوق الحجارة حاملين أطفالهم على أكتافهم فراراً من الموت، حيث تجمع أغلب

الأهالي في منتصف البلدة عسى أن تنقلهم السيارات القليلة إلى خارج دائرة الحرب القائمة.

صعدنا مسرعين إلى السيارة بعد أن اقتربت الصواريخ وكان الهدف حارتنا بعد إصابة الحارات والبيوت المجاورة، كنا نستغل اللحظات القليلة لإنهاء العمل قبل أن يأتي دورنا في تلقي تلك النيران.. ما إن سرنا بضعة أمتار حتى اهتزت الأرض والسيارة تمايلت، وأحاط بنا الغبار والدخان الأسود، أما الصوت فقد كان يصم الآذان.

كانت الغارة قد استهدفت باحة المنزل الأمامية، لم نكن نتوقع أن نصل أحياء، فقد قدّر لنا أن نكون خلف المنزل حينها وإلا يمكن أن نُعجن مع الحديد بالصاروخ .

بكيت دون شعور، بعد تمالك نفسي طوال الوقت، لم أستطع أن أتظاهر بالقوة أكثر من ذلك، وكنت قد حُشرت في صندوق السيارة وسقطت بعض الأغراض فوق رأسي بعد اهتزازها ومنها دولاب احتياطي تحملت وجوده على ظهري حتى وصلنا، انضم إلينا زوجي والبنات، وانطلقنا قاصدين الخروج والنجاة.

كان الطريق مزدحماً بالسيارات، وكان السير بطيئاً جداً بسبب التفتيش الذي تقوم به الحواجز في أول البلد الذي سيستضيف آلاف

السكان الهاربة، والطائرات كانت قد أصابت بعض السيارات وبعض السائرين على أقدامهم وخلفت عشرات الجرحى، وقد استهدفت الخيم التي أقامها البعض من الأهالي في البراري ممن يمتلكون المواشي. كانوا يعتقدون أن الطيار ما زال يحمل في وجدانه الإنساني القليل من الرحمة، ولن يستهدف جموع المدنيين الذين ابتعدوا عن خط المواجهات، ولكنهم أساؤوا الظن هذه المرة فلم يكن أحد في مأمن من النيران إلا من رحم ربي..

وصلنا بعد عناء إلى المنزل الذي جمع ست عائلات من بينهم أهلي استقبلني أبي معاتباً لبقائي تلك الليلة تحت الخطر، وفرحاً لرؤيتي وعائلتي بخير..

****

تدور رحى الحرب وتطحن الأخضر واليابس، فلم يبق بيت ولا حجر ولا شجرة إلا تضرر. عشرات الشهداء والجرحى، عدا عن المعتقلين الذين تم اعتقالهم ظلماً وهم في طريقهم إلى البلدة من قبل الحواجز التي كانت تعترض كل المارين من تفتيش وإهانة حتى بتنا نشعر بالغربة على أرض الوطن وكأن لا حق لنا به.

لملمت جراحي ووظبت نفسي كي أقاوم أكثر وأكون أكثر استعداداً لما ينتظرنا. لم يكن البحث عن مأوى بالأمر السهل، فالبيت الذي

يعج بالهاربين لا يتسع للجميع، أمضيت عدة ليالٍ أفترش الأرض بجانب بعض الأثاث في غرفة صغيرة، وكان الشتاء يطرق الأبواب، ولا نعلم متى سنعود إن كتبت لنا العودة، أو البقاء في تلك البلدة إلى أن يشاء الله.

رحلة اللجوء في الوطن، حربٌ نفسية أخرى، لم يكن حظنا مع البيت الذي لجأنا إليه بعد فراقي عن أهلي بالحظ الجيد، كما حدث مع الكثيرين الذي لاقوا حسن استقبال وضيافة، أما نحن فمضينا شهور الشتاء القاسية ببردها وثلجها في غرفتين اسمنتيتين لا تعرف الشمس طريقها إليهن، ولا الدفء أيضاً، وقد منعنا أصحاب البيت من وضع مدفئة خشية تلوث الجدران بالدخان، وبعد ذلك بدأوا بتضييق الخناق علينا وطلبوا منا الرحيل، دون مبرر، وكأنهم على معزلٍ من الحرب الدائرة، أو أن ما يجري لم يعلّمهم درساً وعظة. الكثير من البيوت في سورية قد دكت فوق رؤوس أصحابها، وهم يخشون على جدران بيتهم من بعض التلوث الذي يزول بالتنظيف .

انطفأت الحرب وسيطر الجيش على المنطقة، وبدأت الأهالي تذهب إلى البلدة ليتفقدوا البيوت وما تبقى منها. تحول بعضها إلى فتات، ومنها ما تم إحراقه، ولم ينجوا منزل واحد من السلب والتعفيش. كنت قد عدت إلى بلدتي مع جميع الموظفين بعد اجبارنا

على الالتزام بعملنا وإلا سنتعرض للفصل، لم يكن الموظف منا بقادر على الاستغناء عن وظيفته بسبب الحاجة للمال، في تلك الظروف التي خسرنا بها كل مقومات الحياة.

بعد الذهاب لعدة أيام متتالية، وبعد ما عشناه من الوقوف لعدة ساعات على الحاجز الفاصل بين البلدتين، وبعد أن شهدنا عمليات الاعتقال للكثير من الشباب الذين لم يعودوا حتى تاريخ كتابتي لهذه الأسطر، قررت الذهاب إلى بيت العائلة لإحضار ما تبقى فيه، بعض الأغطية السميكة والثياب، فقد كان البرد قد دك بأطرافنا حتى تورمت أصابع قدمي وبات السير عسيراً.

اتفقنا مع سيارة لها صندوق واسع بعض الشيء، ورافقتني أخت زوجي الصغرى، على الحاجز وقفنا لبعض الوقت، كان العديد من السيارات تقف في طابور بانتظار دورها في التفتيش والتفييش، وقد خرج راكبيها عدا السائق وتجمهروا مع بعضهم البعض، أحاديث كثيرة ووجوه واجمة خائفة وذعر يتسلل بين الجموع.

جاء أحد الشبان إلى السائق وهمس له ثم ابتعد، علا صوت السائق بالأحاديث التي لا طائل منها وكأنه يطمئننا بأن الأمور تسير على ما يرام ولا داعي لأي قلق، ولكن كل القلق كان يحتل حواسي، لكني أتظاهر بالجرأة والقوة، لأنتهي من تلك المهمة وأعود لبناتي

التي تركتهن عند جدتهن، بينما زوجي كان قد ذهب إلى عمله في حمص بعد انقطاعه شهر كامل بسبب إغلاق الطرق كافة.

كانت البلدة غير التي غادرناها، الملامح مشوهة، دمار هائل، حرائق كثيرة كانت قد التهمت العديد من البيوت، حزن يملأ الشوارع والحارات والجدران وكأننا نسمع أنينها، وكانت السماء تعج بالغيوم السوداء وكأن لا حياة في تلك البلدة البتة..

لم نجد في البيت ما يستحق تلك المغامرة، فقد تمت سرقة أغلب محتوياته، وتحطم بعض الأثاث والنوافذ. الخراب الذي حل في المنزل ينبئ أن التتار مروا من هنا. كتب ممزقة، أوراق متناثرة، ثياب مرمية هنا وهناك، أسلاك الكهرباء قد نزعت من الجدران، لم نجد سوى القليل من الثياب القديمة وبعض الأغطية الصوفية. لا أعلم كيف استطعنا جمع ما تبقى، وكان السائق يساعدنا ويحثنا على الإسراع، ودخان البيوت التي أضرمت النار فيها منذ الصباح، بدأ يزيد من قتامة السماء، وحينما انتهينا وهممنا بالمغادرة، بدأ السائق يسرد لنا ما قاله الشاب له أثناء قدومنا، ما دب الرعب في قلوبنا، وبدأت أوصالنا ترتجف، التصقت أنا وأخت زوجي ببعضنا البعض وكأنما إحدانا تريد أن تستمد القوة من الأخرى، ما سمعناه لم نكن نتخيل حدوثه في بلدتنا، حتى في الأفلام لم نكن نصدقه، ولا يتقبله العقل بأي شكل..

إحدى العائلات التي عادت لجمع محصول الزيتون من بستانهم، بعد أن ظنوا أن الأمان قد حل، وأن الجيش الذي يحيط بالبلدة سيحميهم، جهلوا بأن حاميها حراميها ومغتصبها، وفي غفلة منهم وهم نيام، تسلل أحد الضباط من حاجزٍ يجاور أرضهم، أطلق رصاص مسدسه عليهم جميعاً، نساءً وأطفالاً ورجالاً، ثم أضرم النار بهم وعاد إلى نوبته وكأن شيئاً لم يكن ..

لم أكد أصحُ من وقع تلك الحادثة حتى رن هاتفي المحمول حينما استقبل إحدى الشبكات على الطريق، وكان خالي الذي يحاول الاتصال بأخوته ولا يصل إليهم، بسبب انقطاع الاتصالات في المنطقة، وكان قد توصل إلي صدفة بعد محاولته الاتصال بجميع أرقام من يعرف، ليحمّلني نبأ استشهاد ابن أخيه، (ابن خالي الآخر ذو السبعة عشر ربيعاً) برصاصة قناص أثناء تواجدهم في إحدى بلدات ريف دمشق ..أجهشت بالبكاء، حزناً على ابن خالي وتلك العائلة وعلى البلدة وكل ما يجري، انهارت أعصابي و لم تعد لي القدرة على تحمل مسافة الطريق المتبقية.

بعد عدة أشهر..

بدأ الأهالي بالعودة تدريجياً وبدأوا بإصلاح بيوتهم وترميم ما تم تدميره، كان أهلي من العائدين دوني، وعادت والدة زوجي وابنيها

إلى بيت العائلة بعد ترميمه، آملين أن تكون تلك نهاية الكابوس الذي عاشوه لأول مرة بذلك الرعب منذ بداية الأزمة.

كنت أنا قد التزمت بالعمل في مشفى المدينة، الذي تعرفت فيه على صديقات رائعات، اكتسبت منهن خبرات في مهنة الصيدلة والتمريض وحتى في الحياة، وكان المكان دنيا مصغرة فيه الولادة والموت، وقصص وحكايا، وكنا نشهد الكثير من الحوادث الغريبة التي كانت تحدث، رؤوس تأتي دون أجساد لشبان المدينة، كانت داعش قد تركتهم في الساحة مع رسالة تهديد بأنهم قادمون.

لم يستمر ذلك الأمان أكثر من عام ونصف حتى عاد تنظيم داعش يطرق أبواب المنطقة لتؤرق أمان الساكنين، وعلى الرغم من تحملهم قطع الكهرباء الشبه مستمر وقلة المياه والدواء والاتصالات إلا أنهم في بيوتهم أكثر استقراراً من أن يعايشوا الحرب والنزوح مرة أخرى.. كثر الحديث عنهم وعن تخطيطهم لدخول المدينة التي آوت آلاف النازحين .

****

ذات مساء صيفي شديد الحرارة توالت الانفجارات في مداخل المدينة، لتعلن عن حرب جديدة تقودها داعش ضد قوات النظام، ولكنهم في المعنى الحقيقي كانوا ضد أهالي المنطقة متسترين بالدين الذي لا يفقهون منه شيئًا، لن أطيل الحديث عنهم فهذا ليس هدفي..

في الانفجار الأول اهتزت الأرض من تحتنا، لحظاتٍ لم أستوعب ما حدث ولم يتسنَّ لي أن أنهض إلا وقد وقع الانفجار الثاني والذي كان يبعد عن بيتي حوالي 200 متر. شعرت وكأن الدنيا دارت حولي, فالجدران اهتزت، وتطاير زجاج النوافذ وتناثرت أشياء كثيرة وسقطت من مكانها، والغبار قد ملأ المكان, ماذا حدث؟ صرخت يا لله.. ابنتاي ركضتا بلا اتجاه مرعوبتين، عندما رأيتهما بخير ولم يمسهما أذى حاولت ضبط نفسي لنتمكن من الخروج إلى الجيران نستأنس بهم ونعرف ما يدور حولنا من أحداث.

ارتديت عباءتي وحملت حقيبتي وأمسكت بيد ابنتي لأنزل بهم الى الشارع، استغربت من ابنتي الصغرى التي صرخت وقالت أريد أن أرتدي شيئًا طويلاً يغطي يديّ وقدميّ، لأن داعش ستذبحنا إن لم نكن متسترين. لا أعرف من أين جاءها هذا التفكير ولا من حدثها عن داعش ولم أدرك مثلها أن ما يحدث فعلاً سببه داعش أم غيرها.

ناولتها جاكيتًا لكي تخفف من روعها ونزلت بهما الى أسفل البناية و كان الجيران كلهم يرقبون ما يحدث والغبار يملأ الشارع، و ما إن وصلت أسفل الدرج إلا وحدث الانفجار الثالث والأعنف وأصوات التكبيرات قد علت. بكيت لأني لم استوعب ما يحدث، ولا أعلم ما أفعل. حضنت ابنتي اللتين بكتا بصوت عال أيضاً وجلست بهما تحت الدرج.

حدث الذي كنت أخشاه ولا أتمناه ، ذلك الأمان لم يدم طويلاً، وسنبدأ برحلة نزوح جديدة، كانت هي الثالثة لي مع طفلتي.

بكاء الأطفال والنساء وأصوات الرجال، وتلك المعمعة التي لاتزال ترن في ذاكرتي حتى اللحظة، أحدهم كان يقول لابنته لا تبكِ تحررنا يا بابا تحررنا. تحررنا؟!!..قلت في نفسي بل تدمرنا ولا نعرف ماذا ينتظرنا، فلن تهدأ الحرب حتى تخلو المدينة من الجميع سيموت من يموت، وسيهرب من كُتب له طول العمر.

ستتحرر المدينة من ساكنيها، هذا هو المعنى الحقيقي لما سيحدث، فلقد اعتدنا دائماً بأن كل حرب خاسرة، يسيطر المهاجم بضعة أيام ليضطر للانسحاب من شدة الغارات الجوية التي تستخدم فيها قوات النظام بالتحالف مع الطيران الروسي أعتى أنواع الأسلحة، إذ يتبعون سياسة الأرض المحروقة ليعيدوا سيطرتهم على المكان،

ولا يهم ما ستؤول إليه النتائج من قتلى ودمار، ووحدهم السكان الآمنين من سيدفع الثمن.

دخلنا إلى الشقة في الطابق الأرضي نحن ومجموعة من النساء والأطفال وكان المساء قد حل، في حين أن أصوات رصاص الاشتباكات كانت تئزّ كزخة المطر. أخبرنا أحد الشباب بأن تنظيم داعش اقتحم المدينة واشتبك مع الحواجز وقد ملأوا الشوارع.

حالة من الرعب والحيرة سرت في عروقي، عقلي توقف عن التفكير، لم يكن لدي أي تصور لما سيؤول إليه الحال في نهاية تلك الليلة، وأنا وحيدة مع ابنتي، الجيران من عدة مدن ، وأقرباء أبي يبعدون عنا ولا تواصل بيني وبينهم، حتى صديقاتي بيوتهن بعيدة عن سكني، وفي مثل تلك اللحظات لن يتذكر أحد إلا نفسه وعائلته، فسلمت أمري لله.

حاولت استجماع نفسي، عقلي، قواي، ذكرت الله كثيراً ليهديني إلى الصواب، حيث أنه لا يمكن البقاء في ظل هذه الاشتباكات.

دقائق تمر كساعات طوال، انتصف الليل وأزيز الرصاص ما زال يعلو ويعلو. غلبني النعاس، أغمضت عينيّ أحلم بالأمان والخلاص وبصوت أمي. أمي! لابد أنها انهارت خوفاً علينا،

احفظنا يا الله بحفظك، ولينتهي هذا الكابوس على خير.

كم تمنيت أن أغفو قليلاً وأستيقظ ويكون ما يحدث مجرد كابوس، أعود لحياتي الطبيعية، لعملي، ولكني استيقظت على صوت الطائرة الحربية التي بدأت ترعد في سماء المدينة، معلنة أن الكابوس سأعيشه حقيقة بكامل وعيي. يا إلهي إنها تقترب، صوتها يصم الآذان، صوت صاعق صارخ ينبئ بنزول صاروخ. تجمعت على نفسي ووضعت يدي على أذني، التصقت ابنتاي بي، وتكور جميع من في الصالة على أنفسهم، ليدوي انفجار ضخم غير بعيد. وتتالت الغارات لأكثر من ثلاث ساعات، قررنا جميعاً أن نجمع بعض الأشياء الخاصة من منازلنا، ونخرج مع طلوع الفجر خارج المنطقة .

سكون مخيف قد هبط على المدينة مع طلوع الفجر، لا ندري ما الذي يجري في الخارج ولا كيف سيكون الصباح، التمسنا بعض البطاريات لنضيء المكان قليلاً ثم تجهزنا لصلاة الفجر، صلينا وخرجنا جميعاً إلى الشارع.

كنت مضطرة لأن أبقى مع الجيران وأن أرافقهم أينما ذهبوا حتى ولو قرروا الذهاب إلى خارج المدينة، معهم ألتمس قليلاً من الشجاعة التي فقدتها بعضهن. احداهن تنادي زوجها ليحضر لنا

سيارة تقلنا إلى المحطة القريبة حيث أقيمت بعض الخيم لإيواء الناس بعيداً عن مضارب النيران، فأغلب السكان ستكون المحطة وجهتهم.

في الحرب لن تجد سيارة تستطيع استئجارها، من كانت لديه فهو محظوظ سيخرج بعائلته فوراً، أما الآخرون ونحن منهم ليس لدينا خيار آخر إلا أن نذهب إلى أحد الملاجئ القريبة قبل بدء الغارات من جديد.

توجهنا إلى مركز المدينة. جميع الملاجئ قد امتلأت تقريباً. لم يكن أمامنا سوى الطابق السفلي لمركز تجاري مؤلف من ثلاث طوابق وقد امتلأ هو الآخر ولا يوجد فيه موضع قدم.

تدبرنا أماكن ضيقة وحشرنا أنفسنا بجانب الآخرين، تفقدت شبكة الهاتف، أجريت اتصالاً مع زوجي أخبرته بوجودي في المركز بعدها انتهى شحن الهاتف لينقطع تواصلي مع الخارج. بعد دقائق معدودة بدأت الغارات الجوية الكثيفة تنهال علينا بمختلف أنواع الصواريخ والبراميل شديدة الانفجار، مع كل غارة كنت أتيقن بأننا لن نعيش بعدها، مع كل انفجار أضع أصابعي في أذني وأصرخ بأعلى صوتي حتى ينقطع نفسي، أشعر بتمزق أعصابي المشدودة وأسمع ضربات قلبي الذي بات ينبض في كل خلايا جسدي، الغبار

يملأ القبو بكثافة، ضغط الانفجار يسحب هواء المكان لتتكسر الأبواب البلورية فوق رؤوسنا، نلتصق ببعضنا البعض لنصبح كتلة بشرية معجونة بالدموع والخوف والصراخ والنحيب والتضرع، لولا لطف الله لكنا كتلة من لحم ممزق .

ابنتي الصغيرة كانت تنام أم تفقد الوعي لا أعلم، والثانية كانت متجمدة بجانبي لا تنطق بأية كلمة، أخبئ رأسيهما في حضني إلى أن تنتهي الغارة، أتفقدهما وأغسل وجهيهما بالماء وأخبرهما بأنه لم يحدث أي شيء, وسنخرج قريباً.

استمر الحال هكذا لعدة ساعات، رأيت فيهن الموت بجميع ألوانه، قررت الخروج والعودة إلى المنزل، ضرب من الجنون أو غيره -لا أدري- لكنني لم أعد أحتمل البقاء، ليس خوفاً من الموت ولكن كيلا أموت ولا يجد أحد جثتي بين الألف المتواجدين معنا في القبو.

استجابت لي إحداهن وقررت العودة معي، خرجنا من القبو في لحظة هدوء قلق. الدواعش كانوا يتربصون في الخارج، أمرونا بتغطية وجوهنا كي لا نفتن أحد، وهل في حالة الحرب والقصف وقتٌ لأن ينظر الرجال إلينا أو أن يفتتنوا؟

الدمار قد حل بكل الأبنية المجاورة، حتى المركز الذي كنا فيه لم يسلم أبداً فلقد تعرض لصاروخ اخترق الطابق العلوي وبات منظره يوحي بالانهيار.

لم نستجب لحديث الدواعش وتوجهنا مسرعين من الطرقات الفرعية، الطيران كان قد عاد والمدافع تدك الحارات وأعمدة الدخان المتصاعد في كل مكان، كنت أركض وأقع وأنهض وأركض ممسكة بيد طفلتي. الشمس حارقة والشوارع خالية إلا من بقايا الرصاص والصواريخ، ومن حمامة خائفة ترتجف إلى الحائط الذي وقفنا بجانبه قليلاً إلى أن تبتعد الطائرة.

وصلنا إلى الحارة ودخلنا إلى منزل جارتنا، تنفسنا الصعداء لوصولنا بخير.

هدأ صخب القصف. هدوء مخيف قد عمّ كامل المدينة، اجتمعنا أربع عائلات في منزل واحد، تقاسمنا الطعام والشراب المتبقي. مضت الليلة بسلام, أطبق النوم على أعيننا ولم نشعر إلا وضياء الفجر قد حل.

كنا نترقب الساعات والدقائق ولا ندري ما الذي سيحدث، هل ستعود الطائرات من جديد, وكيف ستكون الحياة بعد فرض

الدواعش سيطرتها على المدينة، وقد باتت خاوية على عروشها إلا من عناصرهم والسكان المختبئين في بعض البيوت مثلنا.

كان أغلب السكان قد غادروا منذ الليلة الاولى وفي صباح اليوم التالي، لم يتبق إلا القليل الذين لم يحالفهم الحظ بوجود آلية تنقلهم إلى المناطق الآمنة. لم تكن للسكان سوى وجهة واحدة وهي إلى الرقة أو إلى المحطة.

جاءت الأخبار بأن الدواعش سيكملون المسير باتجاه طريق دمشق بعد سيطرتهم على المدينة. أوجست خيفة على أهلي. لا أعلم عنهم شيئاً وبالمقابل هم أيضاً لا يعلمون عني أي شيء, إن خرجت من المدينة أو بقيت فيها, أو حتى هل أنا في عداد الأموات أم على قيد الحياة.

وأنا غارقة في قلقي وتفكيري وفي حيرة من أمري لا أدري كيف سأخرج وإلى أين سأذهب وهل سأرى أهلي وزوجي أم لا ،

وإذ بصوت شاب ينادي من الخارج، نظرت بحذر وإذ بي أعرفه، كان ابن عمتي, فرحت كثيراً, ظننت أن أهلي قد أرسلوه إلينا، خرجت مسرعة مرحبة، تفاجأ لرؤيتي وسألني عن سبب تواجدي، لم يكن له علم بإقامتي في المدينة بسبب انعدام التواصل بيننا. أخبرني بأنه جاء بعدما تمكن من أخذ موافقة من داعش لدخول

البلدة، كي يصطحب معه عائلة من أقرباء زوجته والصدفة أنها كانت صاحبة المنزل ذاته، إنه قدر الله، فحمدت الله كثيراً، ركبنا السيارة بعد أن ودعنا باقي العائلات وفي قلبي غصة لأني أعلم بعدم عودتي إلى منزلي الذي أقمت فيه سنة ونصف بعد معاناتي من نزوح سابق.

البلدة لم تكن بعيدة ولكني شعرت أن السيارة تسير في مكانها وأن وصولنا مثل الحلم، كان ابن عمتي يقود بحذر في طرقات برية بعد إخبارنا باحتمال استهدافنا من قبل الطائرات.

قطعنا مسافة جيدة، اقتربنا من البلدة، دخل من مدخل آخر غير المدخل الرئيسي لتفادي أي عواقب تواجهنا في الطريق،

كان من المفرح أن البلدة لم تدخلها داعش وعناصر الجيش والمخفر قد هربوا، أصبحت حرة لا يديرها إلا شبابها الذين نذروا حياتهم للدفاع عنها.

كان منزل أهلي ليس ببعيد، فرحتي بالوصول لا يمكنني وصفها، نزلت من السيارة أنا وطفلتاي، ناديت من الباب أين أنتم ها قد جئت، وكأن صوتي كان جواباً لسؤال أختي التي كانت تجلس مع أمي وعمتي وهي تواسي أمي التي لم تكف عن البكاء منذ يومين وهي تقول متى ستأتي، ومتى سنسمع صوتها الذي ينادي من الباب

ها قد جئت كما هي عادتي كلما زرتهم. لقائي بهم كان مليئاً بالفرح والبكاء .

****

لقائي بأهلي كان بداية الفراق، الوضع بمحيط القرية لا ينذر بخير، اضطراب وفوضى تعم الأرجاء، ولا أحد يعلم ماذا سيحدث، هل ستكمل داعش طريقها إلى البلدة وتتابع تقدمها باتجاه المدن الكبرى أم ستكتفي عند هذا الحد الذي وصلت إليه؟ وما زال نزوح الأهالي مستمراً حتى من هذه البلدة التي لم تدخلها داعش بعد، ولكن السكان قد تعلموا درساً منذ سنتين وبقائهم بانتظار الكارثة غباء وانتحار.

رائحة الحرب ما زالت تعكر على الأهالي أمانهم وخصوصاً بعد توافد سكان الجوار إلى البلدة مع ما أتيح لهم من حمل أمتعة وأثاث بيوتهم، حيث ضاقت بهم الدنيا وبدأوا ببيعها بأبخس الأسعار، ليتمكنوا من توفير أجرة الطريق إلى الشمال السوري، الوجهة الوحيدة التي بإمكانهم الهرب إليها بعدما أغلقت كل الطرقات .

لم يعد زوجي الذي يقبع في عمله يأمل لقاءنا، ولكن الأهم أنه اطمئن علينا، وأوصاني بملازمة أهلي حتى ولو اختاروا الخروج والسفر بعيداً. كانت ليلة قاسية جداً، ضعت في دوامة لم أجد لها

نهاية، لا خيار أمامي سوى الرضوخ للواقع، حزني على مغادرة بيتي واستقراري للمرة الثالثة خلال ٤ سنوات وعلى هذه الحال التي وصلنا إليها، لم يعد يهنأ لنا عيش، ونحن مهددون بهجوم داعش ومعايشة أجواء الحرب التي لا ترحم والتي نجونا منها بقدرة الله منذ بضعة أيام.

قوافل النازحين تسير ليلاً نهاراً. عزمنا على المغادرة لنرتاح من كابوس جثم على قلوبنا، تجهزنا للخروج قبل طلوع الفجر بقليل، خوف وألم يمزق قلوبنا ونحن على يقين بأن هذه المرة لن تكون لنا عودة إلى البلدة, وحينما حانت ساعة الرحيل، أخبرنا أخي ما سمعه أن الطريق خطر الآن, وعلينا أن نأجل السفر بضعة أيام اخرى.

إحباط ويأس قد بدا على وجه أبي، راحة غريبة سرت في عروقي، لعل هناك أمل بالبقاء وعودة نهر الأمان لمجراه، ولكنها كانت أمانٍ فقط لأن الواقع يقول غير هذا.

بعد يومين فتحت منافذ القرية المغلقة وسمح لمن يريد المغادرة نحو المدن الأخرى كحمص ودمشق، كانت طاقة الفرج فتحت لمن يصعب عليه النزوح باتجاه مناطق الشمال التي ليست بأفضل حال وليست بمنأى عن الغارات لتواجد داعش وفصائل مسلحة فيها.

بدأ فراق أهلي عندما ودعتهم وحزمت أمتعتي وسافرت إلى حمص حيث كان زوجي بانتظارنا، على أمل أن يلحقوا بي إن بقيت الأوضاع غير مستقرة ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

لا شيء يؤنس وحدتي سوى قلمي وكراستي، أكتب مذكراتي و في كل مرة كنت أتجاوز عن كثير من التفاصيل التي حصلت معنا أثناء تنقلاتنا من مدينة لأخرى، ولم أتحدث عن أسلوب الحياة ولا ظروف المعيشة التي واجهتنا في تلك السنوات الماضية عدا عن سردي لأحداث الحرب التي لم ولن تمحى من ذاكرة أحد .

من الطبيعي لكل شخص أن يعاني في بداية كل مرحلة جديدة وخصوصاً بعد ترك كل شيء وراءه وخروجه قسراً حاملاً تساؤلات وحيرة، كيف سيبدأ بترتيب حياة مجهولة في بلد لم يتسنَّ له معرفته من قبل، ولا عن طباع أهله التي سيفاجئ كثيراً باختلافها عما اعتادته في بلدته أو مدينته، حتى بعض العادات والتقاليد التي تعجبه ولا تعجبه ولا يستطيع التأقلم معها، وحتى عن قسوة بعض النفوس التي تنظر إليه بازدراء ولا تطلق عليه اسماً سوى النازح, وكأنه هو المسؤول عن الحال التي وصل إليها، ناسين بأنه إنسان مثلهم, جبرته الحرب على حمل أطفاله والهروب بهم من مكان لآخر، ربما لم يكن أكثر أماناً من سابقه، ولكن لا خيار آخر أمامه وكأن الحياة تفرض نفسها عليه وهي التي تختار له

المكان والزمان والظروف، وسيرضى رغماً عن أنفه تاركاً أحلامه وآماله وراءه، وسينسى حتى التفكير بمستقبله، لينحصر عقله فقط في كيفية تدبر حاله وكيف سيمضي يومه، حتى التفكير بالغد يجب ألا يحدث، لأنه اعتاد على أن كل ساعة قادمة ستحمل له شيئاً جديداً وستغير منحى حياته بشكل جذري، كأن تستيقظ صباحاً لتذهب إلى عملك ولكنك في نهاية اليوم ستجد نفسك إما في ملجأ لتحتمي من الغارات أو في طريقك إلى بلد آخر أو في القبر لمن أصابته رصاصة غادرة.

وجودي أنا و طفلتاي عند زوجي كان تخفيفاً على والدي الذي سيتحمل مسؤوليتنا في ظل ظروف صعبة، لا يعلم نهايتها وهو الراعي لأربع بنات غيري, وأمي التي باتت حالتها النفسية تسوء خوفاً على بناتها وابنها الوحيد، وهي كما غيرها قد نفدت عندها طاقة التحمل لمعايشة أجواء حرب جديدة ستكون الأشرس عن سابقاتها هذه المرة.

ذهابي إلى حمص كان من الأمور التي لم أتوقع حدوثها أو ربما لم أحاول التفكير بها بسبب الواقع الصعب الذي فرض نفسه في تلك الفترة، وكانت نصيحة والدي ليطمئن علينا بعيداً عن القرية المهددة بأي لحظة.

استقبلتنا عائلة في قرية صغيرة تنام على كتف العاصي محاذية لمدينة حمص باتجاه حي بابا عمر، بيتهم الصغير المتواضع كان عليه أن يتحمل عبء السكان الجدد الذين لا يعلمون كم المدة التي سيقضونها مع أهله البالغ عددهم ستة أشخاص ونحن أتممناهم إلى عشر. في الحرب ستكون قلة عدد أفراد الأسرة نعمة كبيرة، لأنك ستشعر بثقل كل فرد يطبق على صدرك، وكأن الأرض ضاقت بما رحبت وأنت خارج بيتك وبلدتك وبعيداً عن أهلك، باحثاً عن غرفة صغيرة تأويك وتسترك مع أطفالك .

بدأت رحلة البحث عن مأوى، طارقين كل الأبواب لمن لديه بيت صغير نستأجره، لم نتلقَّ أي استجابة من أحد على الرغم من كثرة البيوت غير المأهولة، كانوا يفضلون أن تبق مغلقة يملأها الغبار وتسكنها الفئران، على أن يستأجرها غريب نازح بنظرهم وكأنه لا يستحق إلا أن يلجأ إلى الأبنية السكنية التي كانت قيد الإنشاء كما فعل أغلب المهاجرين من ديارهم كما رأيت في تلك القرية، وكأن ما يجري لم يعطهم دروساً في الاستغناء عن الماديات بل زادتهم تمسكاً بالدنيا إلا من رحم ربي، ولكن تلك الحوادث قد بدأت تكشف لي أولى الطباع في نفوس الكثيرين وغيرها من الأمور التي حصلت ولن أذكرها، ولكن لا أنكر وجود أناس طيبين قد وقفوا معنا كتلك العائلة التي آوتنا في بيتهم وتقاسموا معنا رغيف الخبز.

بعد خمسة عشرة يوماً من البحث المتواصل رفضت عائلة تأجيرنا شقة لديها ولكن أبدوا موافقتهم على استضافتنا في غرفة خارجية قديمة مع منتفعاتها الواقعة في حوش الدار. انتقلنا للعيش فيها بعدما تبرع أحدهم لنا بحصيرة قديمة ووسادتين واسفنجتين بلا غطاء وجه وبطانيات أربع. كنا لا نخرج من الغرفة التي غدت كسجن الا بعد خروج أصحاب المنزل إلى مزرعتهم، عدا عن ذهابي إلى مستوصف القرية الذي انتقلت للعمل فيه بعد أن وضعت نفسي تحت تصرف المديرية، بعد أن أصبح مكان عملي السابق خارج الخدمة بسبب ما حدث.

بدأ المكان يضيق بنا كثيراً، ورحلة البحث عن بيت مستقل ما زالت جارية، لم أشعر أنا وعائلتي بالراحة مطلقاً وعيون أصحاب البيت علينا يراقبوننا كيفما تحركنا، عدا عن إزعاجات أطفالهم الدائمة طوال تواجدهم في المنزل وترديدهم على مسامعنا بأن صاحبة الغرفة ستعود وغيرها من الحركات المزعجة والصراخ في النوافذ والطرق على الباب.

أهلي في البلدة لا يعيشون حياتهم بشكل طبيعي، ومحاولاتهم للحاق بي باءت بالفشل كوني لم أستقر أولاً، وثانياً غلاء آجار البيوت في حمص المدينة يفوق راتب الموظف بعدة أضعاف. حركات النزوح من وإلى البلدة مازالت مستمرة فالقادمون إليها من

المدينة المجاورة قد أغرقوا ساحتها بكل ما استطاعوا إحضاره من بيوتهم ومحلاتهم، بعدما سمحت لهم داعش بإفراغ بيوتهم ونقل أمتعتهم منها والذهاب بها أينما أرادوا، ولكن محيط التحرك كان محدوداً لا يتجاوز بضعة كيلومترات أو السفر باتجاه الشمال، نشطت حركات الشراء والبيع بأرخص الأسعار، باتت البلدة مدينة صغيرة تعج بالحياة مع قلق يلوح بالأفق, لم يكن للبسطاء من تخيل أن هذه الحياة ستغير منحاها نحو الأسوأ، ولكن والدي لم يكن مطمئناً أبداً وهو يرى قوافل النازحين تخرج يومياً, فلابد من أن شرارة حرب ستشعل المنطقة قريباً، وأن البلدة لن تكن مستبعدة عن هجومٍ مفاجئٍ لداعش التي وعدت بالتمدد إلى ما بعد القرية وسياستها في إخلاء السكان من مناطقها باتت معروفة.

فكرة الخروج تأرجحت بين مؤيد ومعارض، وبلبلة كثيرة جعلت المرء يكتم ما يفكر به وما ينوي، وأن يغادر المكان دون أن يودع أحداً. في إحدى الصباحات استيقظت على رسالة من أختي وصورة لهم محتواها يوحي بأنهم عزموا على الرحيل والخلاص من انتظار المجهول إلى المجهول الذي يأملون من الله أن يكون خيراً لهم، عقدوا العزيمة وتوكلوا على الله وانطلقوا.

لم يكن الخبر بالنسبة لي سهلاً، نسيت كل ما يدور حولي، وسافر قلبي معهم خطوة بخطوة إلى أن وصلوا إلى أقرب نقطة على

الحدود السورية شمالاً مع تركيا، حيث وضعوا رحالهم مع عدة عائلات عند أحد الأقرباء، ليتابعوا المسير بعد يومين خارج البلاد.

لا أستطيع وصف مشاعري يومذاك ولا أعرف كيف سأصور لكم ما حدث في داخلي من لهيب كوى قلبي كالجمر. شعرت يومها بأنني أصبحت غريبة في بلادي، وأن الوطن رحل برحيلهم، وطني كان قلب أمي وبسمة أبي وضحكة أختي، ومزاح أخي. غيابهم قصم ظهري، وجودهم كان قوة لي، فكيف سأنهض وأواجه الحياة وبيني وبينهم حدود وحدود.

رؤيتهم أصبحت كحلم يزورني كل ليلة لأستيقظ صباحاً على واقع مرّ، أرتدي عزيمتي المكسورة وأواجه شراسة الأيام. لم تكن الحرب لتهيمن وقتها على أجوائنا بقدر ما بدأنا بمواجهة حرب من نوع آخر، شعوري بالوحدة أرهقني وأبعدني أكثر عن الاحتكاك بالناس، لم أعد أطيق بناء أية علاقة جديدة مع أحد، فألم الفراق بعد التعلق لا يطاق .

****

بعد شهر ونصف وجدنا شقة صغيرة، شعرنا بعدها ببدء الاستقرار، وبدأت نفسي تطيب جراحها بالتأقلم التدريجي مع الواقع و قبول فكرة هجرة أهلي بعدما وصلني خبر اقتحام القرية من قبل

داعش، ونزوح جميع سكانها تحت ضرب الطيران ومعاناتهم في الطريق, وانقطاع اخبارهم أياماً وسقوط الكثير من الشهداء, وقضائهم أياماً وليالي في السيارات حتى وصلوا بعد عذاب مرير إلى المناطق الآمنة. شعرت حينها بحكمة الله التي اقتضت خروج أهلي قبل وقوع الكارثة.

بعد عدة شهور تم تحرير كامل المنطقة من قوات داعش واستعادها الجيش مع تحريرها أيضاً من كل شيء يجعلها صالحة للعيش. بدأت الحكومة تدعو الأهالي للعودة إلى بيوتهم ولكن لم يكن لأحد أن يستجيب، فلم تجد الدولة أمامها خياراً آخر إلا بإجبار الموظفين على العودة حتى ولو على الأنقاض، كما فعلوا بنا من قبل، وأصدروا أوامر إدارية بذلك وكنت أنا من بين المدعوين ولكن قرار العودة كان خبراً مفرحاً للبعض وصعباً جداً للبعض الآخر. مثلي من كان مهجراً إلى تلك المنطقة لن يفكر بالعودة مطلقاً بعد خروجه منها وبتلك الظروف، فكيف لو أجبر أحدهم على ذلك وكان مخيراً بين الرضوخ للأوامر والحفاظ على مصدر الرزق أو معاندة ومواجهة تلك القوانين، فمن خسر كل شيء لن يتأسف على أي خسارة أخرى وسيواجه مهما كانت النتائج.

تم فصلي من المستوصف، لمباشرة العمل في مستشفى المدينة حيث كنت سابقاً خلال خمسة عشر يوماً، عودتي إلى تلك المنطقة

والتي كانت تبعد عن مكان إقامتي الجديد أكثر من ١٠٠كم كان بالأمر شبه المستحيل، وخصوصاً أنه لا مكان لي لأقيم فيه بعد تسليم البيت لأصحابه وتفريغه من محتوياته، وبعد سفر أهلي لم يعد لي في ذلك المكان أي صلة ولسنا من سكان المنطقة أساساً. بدأت حربي النفسية ومواجهتي لهذا الأمر، فإما أن أبقى في مكاني الجديد أو يتم فصلي من الوظيفة.

في سوريا وفي سنوات الحرب لن تستطيع تدبر معيشتك براتب واحد لا يتجاوز ال ٨٠$ وأنت ملزم بدفع آجار البيت وتأمين حياة كريمة لأبنائك مع ارتفاع الأسعار، لذلك كان علي أن أفعل ما بوسعي للحفاظ على عملي ولمواجهة القرار الصعب حتى وإن خسرت فلي شرف المحاولة. ذهبت إلى مديرية الصحة وطلبت مقابلة المدير لأشرح له وضعي علّه يستمع لي ولا يعيدني إلى المدينة، لكني كنت أقابل بالرفض من أول باب أطرقه وترمى الأوراق في وجهي دون الاستماع إلي، مع تخليهم عن مسؤولية الأمر والقول بأنه قرار المحافظ وليس قرارهم. أعدت الطلب مراراً وتكراراً وتحدث لي بعض الأصدقاء مع فلان وعلان ممن لهم كلمة مسموعة ولكن دون جدوى سوى انتظار الوعود، وتمضي الأيام هباءً وكل حججهم بأن الأمر للمحافظة، وإلغاء أي قرار لا يتم بهذه السهولة وكأن المحافظ ليس له عمل إلا موظفي الصحة ومديرهم لا

ناقة له ولا جمل. كان أمامي أربعة أيام، شعرت بأن الدنيا أغلقت أبوابها في وجهي ولا أستطيع التفكير بشيء وإن فكرت بحل أضيع بمتاهات كثيرة لا مخرج منها. لكني كنت على ثقة بأن الله لن يكلفني ما لا أطيق ولن يحمل نفسي إلا وسعها..

في آخر محاولة لي بمقابلة المدير التي طبعاً قوبلت بالرفض قررت الذهاب إلى مبنى المحافظة ومقابلة المحافظ مهما كانت النتيجة، إن كانوا فعلاً صادقين بأن القرار له، فلن استسلم وسأحكي له قصتي، وإن كان مراعياً وإنسانياً فلن يصدني عن طلبي، لن أخالف القانون إلا بالقانون مع أن الكثيرين كانوا يتجاوزون القوانين والمبادئ لتحقيق مآربهم لمجرد أن لهم في دوائر الحكومة يد خفية (واسطة). في ذلك اليوم لم يحالفني الحظ في مقابلة المحافظ فقررت العودة في اليوم التالي ليحدث مالم أتوقع حدوثه.

استيقظت في ذلك اليوم وأنا كلي ثقة بأن الله لن يضيعني، خرجت من البيت باتجاه السرفيس لأتوجه إلى حمص، قابلت في طريقي إحدى مدرسات القرية والتي كانت ذاهبة الى حمص أيضاً، وأثناء حديثي معها عرفت بأن وجهتنا واحدة، وبأن لها عمل في المحافظة، وقالت أنها تعرف مديراً عن طريق زوجته التي كانت زميلتها في طاقم التدريس، ويمكن الاستعانة به لمقابلة المحافظ كي لا أنتظر في طوابير المراجعين. وبالفعل هذا ما حدث، في مبنى

المحافظة دخلنا الى مكتب المدير وبعد السلام والترحيب، أخبرته بقصتي و ظروفي وكل ما حدث معي من أجل عملي، تفحص بطاقتي الشخصية ودفتر العائلة، وطلبي الذي خططته بيدي لمديرية الصحة متفاجئاً لعدم استقبالهم لي، والنظر في أمري، لأنه من حقي الاعتراض على قرارهم، وخصوصاً أن قيد نفوسي ليس من تلك المنطقة وإنما من حمص المدينة، وقرار العودة لا يشملني، مُبدياً غضبه من رفضهم لمقابلتي لأن شؤوننا نحن الموظفين تحلها المديرية، واستغرب إرسالهم لي إلى المحافظة، لكنه قال لي لا أستطيع مساعدتك! خفق قلبي بسرعة، وشعرت بعجز جمد عقلي عن التفكير، لكنه تابع حديثه قائلاً: اذهبي إلى مكتب نائب المحافظ وأخبريه بكل شيء، شكرته وخرجت ولا أعلم ماذا ينتظرني، لكني لن أتراجع بعدما وصلت إلى هنا وإن لم تخرب لن تصلح، ولن أخسر بقدر ما خسرت. أمام المكتب سألني شرطي عن سبب وجودي، أخبرته بأني أريد مقابلة السيد النائب فلم يبد اعتراضاً وسمح لي بالدخول. دخلت وألقيت السلام ، رحب بي ودعاني للجلوس وكأنه كان بانتظاري، وسألني عن مشكلتي، وما إن أخبرته بأن طلبي كان يقابل بالرفض حتى استشاط غضباً، وعلا صوته. رفع سماعة الهاتف وطلب مدير الصحة، تحدث معه بصوت عال، وطلب منه أن يقابلني الآن والنظر لطلبي والموافقة عليه. تفاجأت لما سمعته وسرت سعادة عجيبة في عروقي، وشعرت وكأني في

حلم، لكني في نفس الوقت لم أشعر بالراحة بعد، وكأن الأمر لم يتم. طلب مني الذهاب حالاً الى المديرية، تمتمت مرتبكة بعبارات الشكر والدعاء له وخرجت. كل ذلك كان بوجود رفيقة الصدفة التي لم تنطق بحرف وتفاجأت لكل ما حدث، حتى ولو كانت السبب في وصولي الى نائب المحافظ دون أن تشعر، إلا أنها كانت متوقعة سيناريو مغاير ينتهي أمام مكتب المدير الذي تعرفه.

في مديرية الصحة اختلف استقبالهم لي كلياً، كان التوتر يرتسم واضحاً على وجوههم:

_ تفضلي تفضلي، المدير أخبرنا أنك قادمة وذهب إلى المحافظة لاجتماع طارئ وقال انتظريه ليرجع.

كان هذا كلام سكرتيره ومدير مكتبه الذي رمى الأوراق في وجهي يوم أمس. أما اليوم، يرحب بي ويتلعثم في حديثه وكأن التي أمامه ليست نفسها التي طردها بالأمس، يا الله كم شعرت بلذة الانتصار وأنا أردد في داخلي لا تنسَ بأنك أنت الذي أرسلتني الى المحافظة.

تأكدت حينها بأن تصرفهم كان فقط لإعجازي ولم يعلموا بأن صاحب الحاجة أرعن، وأن من خرج من بين القذائف والبراميل حياً ونجا من عدة معارك قد مات الخوف بداخله، ولا توقفه الأبواب المغلقة طالما أن الله قادر على فتحها جميعاً.

لم يطل الانتظار أكثر من نصف ساعة حتى خرج السكرتير من غرفة المدير ليخبرني بأن المدير بانتظاري.

بخطوات الواثق من نفسه دخلت وأغلقت الباب خلفي وأوراقي بين يدي، كان أمامي رجل قد علا الغضب رأسه وقدحت عيناه واحمرت وجنتاه، واضعاً يده على خده بانتظار تلك التي أمرته المحافظة أن يقابلها وينظر لطلبها. تقدمت بضع خطوات إلى منتصف المكتب حتى استوقفني صراخه الغاضب مين إنتي؟

-أنا سهير المصطفى

مين إنتي، مين؟؟..قالها بصوت أعلى وأكثر غضباً.

-أنا موظفة ولي عندكن طلب. قاطعني قائلاً:

-وشو يعني شوو ،مين مفكرة حالك.؟؟

-(دكتور أنا جيت لعندكن أكتر من مرة وطلبت مقابلتك ومدير مكتبك هو يلي خبرني إني روح على المحافظة لأن هني صحاب القرار.

ضرب بيده على الطاولة محاولاً اسكاتي، مع تقدمي أكثر باتجاه الطاولة صرخ:

- وقفي عندك، خليكي عندك.

كانت إلى جانب الطاولة تجلس معاونته رئيسة الشؤون والتي كانت تراقب الموقف بابتسامة ساخرة؟

-طبعاً شكلي لم يعجبك، حذائي المغبر الذي شهد رحلة عذابي هل لوث بلاط مكتبك؟ أعتذر فأنا لا أجيد استخدام الألوان على وجهي، ولا على أظافري، ولا أستطيع ارتداء الثياب المزركشة الملونة، أو أن أرتدي ثياباً جديدة تليق بمقامك عندما أقابلك، ها هي أنا كما أنا، لم توظفني أنت ولا غيرك صدقة منكم ولكنه بتعبي وجهدي، وأنا أحترم عملي ولا أخالف التعليمات وفعلت ما أمرتم

فتحملوا النتيجة.

تابع قائلاً: وين كنتي تشتغلي أول شي؟

أخبرته بأني نزحت أربع مرات، كنت في تلك القرية وانتقلت لتلك، ثم عملت في تلك المدينة لأنتقل لغيرها، كل ذلك بسبب الحرب، والآن أنتم تريدون إعادتي إلى منطقة ليست منطقتي أساساً ولا أستطيع العودة أبداً.

-خلص، خلص، هاتي وراقك.

تفقد أوراقي ثم أرسلني لاستكمالها في دائرة الشؤون.

هناك حيث ذهبت معي مديرة المكتب سألتني :أنتي مين واسطتك؟

-الله رب العالمين.

-ما اختلفنا بس أكيد وراكي واسطة تقيلة.

-قلتلك واسطتي رب العالمين، ليش في أقوى من هيك واسطة؟

لم يعجبها كلامي، وتابعت تتفقد أوراقي وسيرتي المهنية.

-شوفي اختاري واحد من المشافي تباشري فيه لأن صعب نخليكي بالضيعة الي أنتي فيها.

-ليش صعب؟ المستوصف فاضي ما فيه عناصر وانا استلمت شغل جديد ومافي حدا يستلمو بدالي.

-هي شغلتنا نحنا مندبر بدالك بس ما بدنا تفتحي علينا بواب مغلقة وواسطتك بعدين بتخليها ترجعك على الضيعة.

-ليش مو مصدقة أنه ما عندي واسطة؟

ابتسمت بسخرية وقالت: واللي اشتكانا للمحافظة. مارح أحكي هلأ، اختاري اسم مشفى خلينا نخلص شغلنا.

-طيب ما في مشكلة بختار مشفى الوليد.

-اكتبي هون بخط إيدك.

كتبت ما أملته علي بغير رضاً مني، لكن كما يقول المثل (أحسن من العمى)، وأنا أردد في داخلي يا رب كملها معي.

عدت إلى مكتب المدير الذي لم تهدأ ثورة غضبه بعد وما زال السم يتقطر من وجهه. تحدث مع مديرة الشؤون التي رافقتني أيضاً بصوت منخفض، وبنظرات حاقدة قالت:

-اختارت مشفى الوليد، رح تباشر فيه اعتباراً من بكرا

نظر إلي نظرة سوداوية هو الآخر وقال:

-شو مستلمة بالمستوصف؟

-تغذية أطفال.

-شو بتعرفي عن التغذية؟

-الشغلات التي تعلمتا بالدورة عم طبقا وعم ابعتلكن التقارير الشهرية.

-يعني شو عم تشتغلي شي جديد بهالمجال شو ابتدعتي؟

استغربت سؤاله صراحة وكأنهم من يبتدعون في أعمالهم.

-متابعة الحالات وعلاجها بشكل دوري وتقديم العلاج.

-شو هو العلاج ؟

-زبدة الفول اللي عم تبعتوها على المركز.

صرخ غاضباً وكأن أجوبتي لم تعجبه.

-أمي بتعرف توزع زبدة وتشتغل كل هالشغل، ألف واحد عم يتمنى يستلم هالشغلة وعم يدفعوا مصاري مشان هالشي.

شوفي يا بنتي بدنا نراقب شغلك شهر كامل وبدنا نشوف تقاريرك إذا في أي خلل أو خطأ زغير اعتبري حالك منقولة.

ثم التقط قلمه الأخضر وخط به أسفل الورقة، (مع الموافقة على البقاء في مركز .(

تفاجأت مديرة الشؤون وبهت لونها وكأنه لم يعجبها.

-خدي وراقك وكملي شغلن بباقي المكاتب. قالها بصوت منخفض وأقل حدة.

لملمت أوراقي وابتسمت ابتسامة المنتصر وهم ينظرون إلي نظرات غريبة.

-شكراً يعطيكن العافية. وخرجت لا أصدق ما حدث، استكملت باقي الأوراق لأنتظر قرار العودة الذي لم أغادر إلا وهو معي وعدت منتصرة فرحة إلى البيت.

عودتي إلى العمل كان أمراً مفاجئاً للكثيرين، لم أخبرهم بتفاصيل ما حدث معي، لكنهم كانوا يحذرونني من أية ردة فعل لمدير الصحة أو نقل مفاجئ، ولكني لم ألق بالاً لكلام أحد، وكنت أهتم بعملي فقط.

****

لم تكن الأيام في تلك القرية كما كانت تمر علينا سابقاً، فلا أمان كالأمان الذي كنا نعيشه قبل سنوات. المظاهر المسلحة موجودة، أصوات الرصاص الذي يطلق في الجو حزناً على أحد قتلى الدفاع الوطني وعلى من كان يرابط في البادية وسقط صريعاً على أيدي داعش، كانت تعود بنا إلى لحظات الحرب، لأنهم حين يطلقون

لبنادقهم العنان، لا يسكتونها إلا بعد أكثر من نصف ساعة حتى ينتهي تأبين شهيدهم. في تلك اللحظات وعلى الرغم من أننا نعلم بأن هذه الأصوات ليست مواجهة مع أحد إلا أنها كانت تسبب لنا رعباً وخصوصاً ابنتي الصغيرة التي كانت تهرب إلى الحمام وتضع يديها على أذنيها وترتعد بطريقة هستيرية. عندما أراها بهذه الحال، أتمزق ألماً وأحاول تهدئتها وأطمئنها بأنها ليست خطرة، ولكن عبثاً، فخوفها كان يزداد يوماً بعد يوم، باتت تخاف من النوافذ المفتوحة، حتى صوت شيخ الجامع عندما يعلن عن وفاة أحدهم سبب لها مشكلة نفسية، فعند سماعها له كانت تطير وتجلس إلى جانبي وتضع رأسها في حضني خوفاً من بدء عرس الرصاص التي اعتادت أن تسمعه بعد كل إعلان عن شهيد. كل الأساليب التي اتبعتها أنا ووالدها لتهدئتها لم تجد نفعاً، بت أخاف عليها من مرض نفسي وخصوصاً بعدما بدأت تتلعثم في كلامها. لم يكن الخوف مقتصراً عليها، بل كنا نخاف من مجهول لا نعرفه. زوجي الذي كان يتجنب التحرك خارج القرية إلا للضرورة، لم يكن مرتاحاً حتى يبلغ السن الذي يجنبه التجنيد الاحتياطي. جواسيس القرية كانوا ينتظرون خطأ أي شخص لتسليمه إلى أفرع الأمن بكتابة التقارير التي كانت تودي بمصير الكثيرين في أقبية السجون دون معرفة التهمة الموجهة إليهم..

باتت القرية خالية من أغلب الشباب الذي هرب معظمهم إلى لبنان، أو إلى الشمال السوري، أو التحق بفرق الدفاع الوطني وذلك خوفاً من التجنيد الإجباري الذي ليس له نهاية للتسريح في زمن الحرب، أو الموت، وخوفاً من الاعتقال والاقتياد إلى مصير مجهول كما المئات من أقرانهم الذين قضوا سنوات في السجون، مع حسرات الأمهات والزوجات اللواتي ينتظرن خبراً بفارغ الصبر وينكرن فكرة أن يكونوا قد قتلوا.

كل تلك الظروف جعلتنا نشعر وكأننا في سجن كبير، يطبق على أنفاسنا ولكن لم يكن في خاطرنا تصور لما بعد ذلك، وكم من السنوات سنقضيها وكيف؟

تمر الأيام كسابقاتها لا جديد إلا غياب من نحب، في ظل ظروف الحرب ستتوقع دائماً فراق من حولك ومن هم أقرب الناس إليك. فبعد غياب أهلي لم يبق لي في البلاد إلا أختي المتزوجة في محافظة مجاورة تبعد سويعات، إلا أن صعوبة التنقل وتغيير خارطة الطرقات غيبتها عني سنة كاملة، استطعت بعدها أن ألتقي بها في حمص لبضعة أيام، كنت أشعر بقطعة من أمي وأبي تؤنس غربتي في وطني لينكسر قلبي بعد عدة أشهر من لقائها ولحاقها بأهلي، بعد أن تعرضت مدينتهم لهجوم مسلح من مقاتلي الجيش

الحر يستهدف قوات النظام ما يعني نزوح الأهالي هرباً من نيران الحرب العمياء والتي لا ترحم أحداً.

كنت يومها على سريرٍ أخضر في المشفى بعد ولادتي لطفلة جديدة بعملية قيصرية، ارتفع ضغطي على إثر سماعي لخبر مداهمة البلدة التي تقيم فيها أختي، بعدما كانت عندي قبل ساعة وتوجهها إلى ابنتها وزوجها في المدينة التي تشهد المعارك الآن، ولا يخفى على أحد ما سيحدث على إثرها.

ارتفاع الضغط سبب انفجار الشعيرات الدموية في منطقة الجرح، ما أدى إلى نزيف حاد تسبب بتشكل قيلة دموية في بطني، لم أشعر بآلامها ولم أهتم لوجودها على الرغم من الدم الذي ملأ ثيابي والسرير.

تم استدعاء الطبيبة من قبل التمريض المرافق لي، وبدل أن كان مقررًا خروجي من المشفى بعد استقرار حالتي تم انزالي إلى غرفة العمليات لفتح الجرح وتنظيفه وخياطته مرتين متتاليتين دون تخدير وذاك لعدم توقف النزف بسهولة، كان عقلي مغيبًا عن التفكير بنفسي ولم أصرخ إلا بآخر غرزة...

بعد سفر أختي، بات قلبي خاوياً، صرت أسيرة الفراغ، لم أعد أمارس حياتي اليومية بشكل طبيعي، هاجر عقلي وقلبي إلى ما

وراء الحدود، زاد اكتئابي أكثر بعد مغادرة جارتي في الطابق السفلي للمنزل مع أطفالها إلى الشمال، لتلحق بزوجها الذي هرب من التجنيد الاحتياطي بعد اقتحام بيته في منتصف الليل، وزجه قسراً في صفوف المقاتلين الذين يقومون بتدريبهم لمواجهة داعش وخلايا الإرهاب في مختلف مناطق سورية على حد زعمهم.

كنت أملأ وقتي بالبكاء أحياناً، أو بالقراءة أحياناً أخرى، أو بتعلم لغات البلدان التي من الممكن أن نتوجه إليها يوماً ما دون سابق إنذار، فكل شيء كان متوقعاً بعد تجاربي وتجارب الآخرين .

سنوات الحرب زادت من رصيدي الاجتماعي, كما زادت طردياً من أوجاعي، ففي كل منطقة كنت أتعرف على أصدقاء جدد يؤنسون عليّ غربة المكان لأكتوي بنار فراقهم بعد سنوات قليلة أو شهور معدودة، ليتجدد الجرح الذي خلّفه غياب أهلي ويكبر أكثر بفراقي لصديقاتي وزميلاتي دونما أملٍ باللقاء. بتُّ أفضّل الوحدة في البيت والعمل وأتجنب الاحتكاك مع الناس وتبادل الأحاديث معهم مما يزيد من عمق المعرفة، فقلبي لم يعد يحتمل مزيداً من الجروح والانكسارات.

على الرغم من قسوة الحياة فهي تهب لنا ما يؤنس غربتنا ويضفي على قلوبنا بهجة تطيب جرحنا قليلاً وتسلينا عما نحن فيه، طفلتي

الجديدة لم تغير منحى حياتنا فحسب بل جعلت المسؤولية أكبر ليصبح التفكير بمستقبل ثلاثة أطفال ليس بالأمر السهل، في بلدٍ يتمزق يوماً بعد يوم، ويجري في طريق شائك لا تُعرف نهايته. اكتئابي وخوفي وتفكيري وانعزالي عن الناس لم يأت بنتيجةٍ إلا فقدان أسرتي جو الراحة والاطمئنان، ومهمتي كأمّ مسؤولة عن تأمين كل ذلك لهم، سلّمت أمورنا وهمومنا وتفكيرنا بمستقبلنا لخالقنا الذي يتولانا برحمته، والذي يخبئ لنا في حنايا القدر مفاجآت، و يهيئ لنا أسباب ما نصبو إليه، لكن لا يتم أمرٌ إلا بامتحانٍ للصبر وابتلاءٍ للعزيمة، فما الذي كان بانتظارنا؟

ما كان بانتظارنا ليس بالأمر الغريب وغير المتوقع، ولكنه كان صعباً لأنه سيغير منحى حياتنا جذرياً، وسنضحي بالمزيد لضمان سلامتنا وأماننا. أن تكون وحيداً في بلدك، يعني أن تعيش الغربة بحذافيرها، أن تخاف على نفسك وعلى أبنائك من مفاجآت القدر، أن تعايش المرض والخوف وحدك، أن تتخيل نفسك ميتاً تاركاً أبناءك لوحدهم لا يجدون من يرعاهم بعدك، وغيرها من الظروف والأفكار التي جعلتنا نحزم أمرنا ونغادر البلاد ونلحق بالأهل.

غادر زوجي البيت صباحاً مودعاً وآملاً أن نلحق به بعد عدة أيام. بقائي وحيدة كان الامتحان الأصعب، ورعايتي لبناتي وتهيئة أنفسنا للمغادرة كان أقسى ما عشته، لا أنكر بأني كنت أخاف من

كل شيء، حتى من أصوات السيارات التي تمر مسرعة من أمام المنزل، حتى من النساء اللواتي ترددن لزيارتي بحجة شراء بعض الأثاث بعد معرفتهن بنيتي على الرحيل. ترددت كثيراً حتى قررت السفر بتكسي خاصة إلى حلب. لحسن حظي لم أكن لوحدي بل رافقتني امرأة وطفلتها، لتكون لنا نفس الوجهة. رحلتنا إلى حلب لم تكن بالصعبة أبداً، لكن الأصعب كان السفر إلى ما بعد حلب.

استقلينا سرفيس ركاب بعد أربع ساعات من الانتظار والبحث عمن يوصلنا إلى قرى إدلب، كانت الحواجز منتشرة بشكل كثيف طول الطريق حتى وصلنا إلى مناطق الأكراد، حينها شعرت وكأني أنتقل بين دولة وأخرى بحدودها و حرسها وجمركها. لم نعبر منطقتهم إلا بعد التفتيش والانتظار لعدة ساعات وحتى سارت قوافل السيارات صفاً واحداً باتجاه مناطق ادلب والتي تقع تحت سيطرة ما يسمى جبهة النصرة ولا أدري إن كانت معها فصائل أخرى.

كانت الشمس قد قاربت على المغيب حتى وصلنا مدينة الدانا القريبة من الحدود التركية، وهي محطتنا الأولى لنعيش فيها وفي غيرها من القرى المجاورة أشهراً هي الأقسى في حياتنا، سكان تلك المناطق من النازحين كانوا يعيشون تحت خط الفقر، لغلاء أجارات البيوت التي استغل أصحابها حاجة هؤلاء الذين غادروا بيوتهم مجبرين، ولقلة فرص العمل إن لم تكن لانعدامها، والضغط

السكاني الهائل لأنها كانت الوجهة الوحيدة لأغلب الهاربين بعد أن أغلقت لبنان والأردن حدودهما، والأمل في اجتياز الحدود للوصول إلى تركيا ومنها إلى أوروبا كما فعل الكثيرون وينتظر آخرون. لذلك لجأ الكثير من النازحين إلى مخيمات أقيمت على الحدود لمواجهة قسوة الحياة من قلة للمياه النظيفة وغيرها من أبسط متطلبات الحياة، مع انتشار الأمراض والأوبئة ومصابي الحرب الذين يفتقدون للعلاج المناسب. الحياة في الشمال السوري جهاد للنفس على الجوع والخوف، وعلى تحمل نفوس بعض البشر التي أغراها حمل السلاح.

لم تكن قرى إدلب بمأمن من الغارات الجوية وقذائف المدفعية، كانت الحياة تعود لطبيعتها بعد كل غارة، وحين الانتهاء من انتشال الضحايا ودفنهم، وكأنه بات من الروتين اليومي المعتاد للسكان. كل ذلك كان أمراً طبيعياً لمنطقة تمتلئ بالمسلحين والمعارضين، إلا أن المبكي هو عداء بعض الفصائل ومحاربتها لبعضها بالأسلحة الخفيفة والثقيلة، والاغتيالات التي تقع في وضح النهار والتصفيات العشوائية.

ما يوجع: هو أن أبناء البلد الواحد والجلدة الواحدة يقتلون بعضهم البعض, وأن سورية تدمرت على أيد أبنائها، وأن المال أنساهم هدفهم الذي خرجوا لأجله.

و إنّ من دفع الثمن هم البسطاء والفقراء، ومن خرج لوجه الله خالصاً لاقى ربه تاركاً وراءه أيتاماً وثكالى.

الحديث عن سورية لا يمكن تلخيصه ببضعة أسطر، ولا وصفه بعدة مقالات ولا الحديث عنه بعدة روايات..

الحديث عن سورية لا ينتهي أبداً فهي ليست وجع مواطن واحد بل الملايين منذ عشر سنوات وإلى الآن..

بات العيش في سورية مؤلماً جداً، ولم نعد نملك شيئاً يربطنا بالبقاء فيها، حتى ذكرياتنا مسحوها، وكان تفكيرنا بمغادرة البلاد قراراً لا رجعة فيه، فهل نستطيع اجتياز الحدود بسهولة؟

****

رحلة النزوح تسرق من الإنسان إحساسه حتى يصل إلى مراحلها الأخيرة ببقايا مشاعر، تلعب به أيادي القدر دون أي اعتراض منه حتى ولو وصل به الحال إلى التهلكة. آلة القتل لم تتوقف عن إنتاج الموت وتصديره إلى مختلف المناطق شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، حتى ضاقت بنا الأرض بما رحبت .

تواصلنا مع أحد الأشخاص الذين يقومون بإدخال الناس إلى الأراضي التركية مقابل المال، وقد وصف لنا الطريق كالذهابين في

رحلة وسط الطبيعة الخلابة. كنا عائلتين فقط، اتفقنا وسرنا بتوتر وخوف، واتجهنا إلى قرية صغيرة متاخمة للحدود بالقرب من مدينة دركوش، انتظرنا في السيارة حتى مغيب الشمس. جاء أحدهم وأخذ منا البطاقات الشخصية وقال أن ساعة الانطلاق قد حانت. رافقنا شابان، أحدهما كان يسير أمامنا والآخر وراءنا، حتى إذا تأخر أحدنا في المسير كان يحثه على المواصلة دون توقف .

منذ الخطوات الأولى لنا على طريق صاعد ضيق تحفه الأشجار من الجانبين، تسارعت ضربات قلبي حتى شعرت وكأنه سينتزع من بين ضلوعي، حتى صرت أتنفس بصعوبة، خوفاً..تعباً لا أعلم. توقفت لألتقط أنفاسي فتوقف المرافق مخاطباً لي :

أختي أنت مريضة شي، معك ربو؟ معك قلب؟

لم أستطع النطق والإجابة واكتفيت بهز رأسي بالنفي. في تلك اللحظات كان زوجي وبناتي قد سبقوني دون أن يلتفت منهم أحد أملاً بقطع المسافة بأقصى سرعة، كي لا نلفت أنظار العسكر المتربصين على الحدود. تابعت السير على مضض حتى توقف الدليل الذي كان أمامنا وطلب أن نرتاح قليلاً. كانت فرصة لي بأن أستعيد توازني وأن أستجمع قوتي، فما زلنا في البداية..

أكملنا السير بعد بضع دقائق، عندما تلوح أضواء الكشافة نهرول مطأطئي الرؤوس، وكان الطريق يزداد صعوداً وصعوبة، والظلام اشتد حتى لم نعد نرى أمامنا كما ينبغي، وكان من المحظور استخدام أي ضوء، وإصدار أي صوت، حتى أننا نزفر من صدرونا بهدوء كي لا يُسمع لهاثنا. كنت أشعر بأن قلبي سيقف بأية لحظة، لم ينبض بتلك القوة والسرعة من قبل، أقف عاجزة عن المتابعة دون إرادة مني، وكأن شللاً مفاجئاً يصيب قدمي، (لا توقفوا..لا توقفوا، عجلوا..عجلوا، ما بصير نرتاح هون، هلأ بقوص علينا العسكر..). كانت هذه كلمات الدلّيل الذي حمل حقيبتنا على ظهره واضعاً يديه وراءه ماشياً بخطوات ثابتة، حافظاً الطريق عن ظهر قلب. حتى زوجي تباطأت خطواته، وهو يحمل ابنتنا الصغيرة بين يديه بعد أن أعطيناها دواءً منوماً كي لا تبكي وتفتضح أمرنا. ابنتنا كانت أفضل منا بالمسير، الأطفال جبارون، تمشي ابنتنا دون أن تتلفظ بأي صوت، حالمة بالخلاص من الحرب ومن رحلات الهروب من الموت، لا أرى وجهها في الظلمة ولكني أشعر بخوفها. أكثر من نصف الطريق كان خاوياً، لا عابرين للحدود سوانا، أين تلك الجموع الغفيرة التي التقينا بها عند آخر نقطة لحرس الحدود السوري؟ هل سلكوا طرقاً أخرى أم وقعنا في مصيدة لتجار البشر؟ السير مع رجلين غريبين بين الجبال كانت مخاطرة، لكن لا خيار أمامنا سوى الاستسلام لقدرنا ومتابعة

المسير. الحلم بلقاء أمي كانت جرعة مهدئة لأفكاري المخيفة، أمي تنتظر وصولي الآن، أمي الآن تدعو لنا، سألتقي بأمي بعد عامين ونصف من الفراق، كنت أردد تلك الكلمات بداخلي، ليغيب عقلي عن صعوبة الطريق، وتتابع قدمي المسير بهمة أفضل قليلاً من ذي قبل..

بعد سيرنا لساعة أو أكثر، الوقت في تلك اللحظات يختلف كلياً، لا تمشي الساعة كما عهدناها بالدقائق والثواني بل تمشي بخطواتك ودقات قلبك وبعدد أنفاسك نفساً نفساً. وصلنا إلى غرفة صغيرة في رأس جبل امتلأت بالعابرين للحدود مثلنا، ماذا ينتظرون هنا؟

طلب الدليل منا أن نرتاح بجانب حائط الغرفة من الخارج جلسنا جميعاً، آلام السير قد بدأت تهاجم أجسادنا التي ترتعد من البرد، لم نكن نمتلك أغطية فلجأنا للالتصاق ببعضنا البعض لتدفئة البنات اللواتي استسلمن للنوم، كما دأب الجميع داخل الغرفة ومحيطها.

) ناموا..ارتاحوا.. هون ماعلينا خطر لساتنا بالأراضي السورية والعسكر مو شايفنا ، بس راحت الدورية يلي عند الفتحة بنكمل، بدنا نركض ركض لما نقطع طريق الزفت ،مابدي نفس، بس صرنا بالأراضي التركية رح نركض شوي وبعدا بنمشي ع مهلنا وخلص بنكون صرنا بأمان) كانت هذه كلمات المهرب الذي ألقاها

على مسامعنا، وتمدد على الأرض.. السماء مزينة بالنجوم وهي تتسع اتساعاً لم أره من قبل، كم شعرت بضيق الأرض حينها ونحن عالقون بين الموت والحياة، بين الألم والأمل، بين أن نكون أو لا نكون. مرت ساعات على مكوثنا في العراء، سكون مخيف إلا من صوت رصاصة يتبعها صدى يتردد بين الجبال، وكأنها رسالة من حرس الحدود بعدم الاقتراب أكثر، كنت أشعر بتوقف الزمن وبنفاد الصبر وبفقدان الأمل في الوصول إلى بر الأمان في تلك الليلة، لا شيء يوحي بأننا سننجح في اجتياز الشريط الشائك الذي يحرسه جنود مرابطين، ولا يبدو أنهم سيغادرون المكان أو أن تغفل أعينهم عن الحراسة. كان أحد المهربين يتسلل بين الأشجار لمراقبة الطريق ويعود خائباً بأن لا مجال للمتابعة وإلا سيتم الإمساك بنا أو إطلاق النار علينا.

قبل الفجر بقليل استيقظ مَن في الغرفة ومرافقيهم من المهربين، خرجوا واصطفوا رتلاً واحداً، كانوا رجالاً ونساءً، شباباً وفتيات، وإحداهن تحمل رضيعها بين يديها الذي كنت أسمع بكاءه طوال الليل، هؤلاء من صمدوا ووصلوا إلى هذا المكان في حين عاد الباقي من منتصف الطريق، بعض النساء تبكي وبعض الرجال تشتم المهرب الذي أوهمهم بأنه أضاع الطريق ولا يستطيع المتابعة..

جرى حديث سريع بين المهربين حيث استشاروا بعضهم من سيكون كبش الفداء الذي سيغامر ويحاول قطع الحدود، من كان يرافقنا رفض التقدم أولاً وبقي جالساً، بعد أن ساروا وتجاوزونا أخبرنا بأننا بعد قليل سنعرف إن نجحوا في اجتياز الحدود أم لا ..

لم تكن سوى دقائق إلا وسمعنا زخات الرصاص وأصوات العسكر، لقد تم الامساك بهم، شعور بالخيبة أحبطني، قرار العودة من حيث أتينا أرحم من أن نتابع ونسلم أنفسنا لعسكر الحدود، كان هذا قرار الجميع، عدنا أدراجنا. المهرب أمامنا ونحن من الخلف، لم تكن العودة بأسهل من الصعود، خيبات الأمل التي حملناها قد أثقلت كاهلنا، وتباطأت خطواتنا، والخوف من إطلاق النار علينا كان يشل تفكيرنا وحتى حواسنا.

) اركضوا..اركضوا..ونزلوا راسكن..العسكر ضرب الكشاف علينا. شافونا، هلأ بقوصوا علينا..). قالها المهرب وبدأ بالركض وركضنا خلفه، كانت الأتربة زراعية رخوة تغوص بها الأقدام، وكان الطريق مائلاً شديد الانحدار، لم يكن المشي سهلاً ليكون الركض أشبه بالمشي على جدار، ومع انحناء الرأس سيختل التوازن تماماً، فلم أشعر بنفسي إلا وصرت أرضاً مع تدحرجي بضعة أمتار إلى الأسفل، لم أجد إلا يداً أمسكت بي، زوجي ساعدني في النهوض لنتابع المسير بسرعة، كنا نمشي ونركض

ونتعثر، إلى أن وصلنا أسفل الجبل مع طلوع الفجر، طلبوا منا أن نرتاح وحتى أن ننام لحين شروق الشمس، أي نوم وأي راحة وأملنا بالخلاص قد تبخر مع تلاشي ظلمة تلك الليلة ونجومها؟ بقينا جالسين على الأرض نراقب الأفق، نراقب الشمس وهي تنشر أولى خيوطها في الكون، يا ليتها نشرت الأمان والسلام، ارتفعت الشمس عالياً في السماء وبدأت حرارتها تلسع وجوهنا، نفد منا الماء ولم نكن نحمل أي طعام، ومازلنا في أماكننا ننتظر استيقاظ المهربين الذين غطوا في نوم عميق تحت ظل الأشجار.

بكاء الطفل جوعاً أيقظهم. أخبرونا بأننا لا نستطيع الحراك إلا أن تأتي سيارة أحدهم، فالسير على الأقدام في ذلك المكان خطر لتعرضه لإطلاق النار كما يزعمون. اشتد بكاء الطفل واشتدت حيرة أهله معه، ومن المضحك المبكي بأنه كان يطلب سندويشة لحم، حلم الطفل بأن يأكل تلك السندويشة لم يمنعه من الصراخ وهو يقف على الحدود بين دولته التي لم تحفظ له حق الحياة بأمان وبين الدولة الأخرى التي لن توفرها له وهو يحاول الدخول إليها منتهكاً قوانينها، بعد أن انتهك وطنه كامل حقوقه.

بعد نفاذ صبرنا وصلت سيارة، أقلّتنا إلى القرية التي انطلقنا منها، وضعونا في بيت مخصص للعابرين، وبدأ المهرب بمساومتنا

على زيادة المال مقابل أن يعبر بنا من طريق آخر ضامناً لنا اجتياز الحدود هذه المرة دون أية عوائق، فماذا نفعل؟

****

في ذلك البيت الذي يقع فوق تلـةٍ مرتفعـةٍ تطـلُّ علـى عـدة قـرى وتقابلها جبالٌ شاهقةٌ وأشجارٌ خضراء، اجتمعنا أربع عائلات ثلاثٌ منهن قد عادوا للتو من محاولةٍ فاشلةٍ للعبور والرابعة كانت جديـدة لا تعلم بعد عن الطريق شيء، كانت معنا أمٌّ لستة أطفال اثنانٌ منهم كانا أصمّين، وكانت تلك محاولتهم الخامسـة التـي ترمـي بهـم بـين أيـادي حـرس الحـدود أو خلـف الشـريط الشـائك والجـدار مـولين الأدبار، آثار التـراب والتعـب واضـحة جليـة علـيهم، بـدأت المـرأة تقصُّ علينا حكايتهم وما عانوه ورأوه على الحـدود, وكيـف لامـرأة فقدت طفلاً سـقط فـي الـوادي أمـامهم، وكيـف مضـوا تلـك الليـالي المرعبة على الجبال دون طعام وشراب ولكـن إرادتهـم وعـزيمتهم كانت أقوى من أن يستسلموا وسيعاودون المحاولة مـراراً وتكـراراً حتى ينجحوا، فما كان عليهم إلا أن يقبلوا بعرض المهرب ويوافقوا علـى المسـاومة. أمـا نحـن ولأنهـا تجربتنـا الأولـى الفاشـلة والتـي أصابتنا بالإحباط, وما لاقينـاه مـن عـذاب وتعـب وخـوف, رفضـنا البقاء ولم يغرنا عـرض المهـرب الـذي أكـد لنـا بـأن الليلـة القادمـة سنكون في الأراضـي التركيـة دون شـك. آلام كـاحلي منعتنـي مـن

السير لذلك كان لرفضنا حجة، أعادوا لنا أموالنا وغادرنا المكان إلى ريف حلب حيث كان يقيم أحد الأقارب.

عدنا بخيبات الأمل، بدموع الانكسار، بأحلام محطمة مشردة تاهت بين الجبال لتلقى مصرعها على الحدود. لم تكن الحياة بريف حلب الجنوبي بمنأى عن ضربات الطيران ولا عن خلافات الفصائل والاشتباكات فيما بينهم، كانت الأيام تمر ثقيلة على قلوبنا، وما زاد من إحباطنا إرسال المهرب لنا مقطعاً مصوراً للعائلة التي تركناها عندهم، ظاهرين وكأنهم قد اجتازوا الحدود ووصلوا برّ الأمان، لم نتأكد من صحة الخبر ولكن كان كفيلاً ببث القليل من الأمل في نفوسنا والتفكير في إعادة التجربة.

بحثٌ متواصل عن أخبار التهريب والطرقات على مواقع التواصل الاجتماعي كان جلُّ اهتمامنا، أصابتنا الحيرة في أن نصدق أو لا نصدق، إعلانات مشجعة ومغرية، أرقام مهربين تردنا من الأقارب والأهل، كان آخرها رقم أحدهم طالباً مبلغاً مالياً كبيراً مقابل أن نقطع الحدود نهاراً بجرار زراعي دون اعتراض حرس الحدود ودون أية مخاطر. لم يكن المال الذي نملكه كافياً لعبورنا جميعاً فاختار زوجي البقاء مقابل أن أعبر أنا والبنات، كان قراراً صعباً ولكن لا خيار آخر أمامنا سوى المغامرة.

لم يتردد المهرب فور اتصالنا به وكأنه قد وجد كنزاً أراد الاستحواذ عليه دون تأخر، فأصرّ علينا أن نتجهز في الحال وبأنه سيأتي هو بنفسه لنقلنا إلى الحدود حيث نقطة الانطلاق. كان قد مرّ أكثر من نصف النهار ولم يكن المال متوفراً بين أيدينا، حالة من التوتر والارتباك قد أصابتنا. حاولنا تجهيز كل شيء بوقت قصير، بقي من المال مبلغ صغير تكفل المهرب بسداده لحين وصولنا تركيا كي لا يخسرنا كزبائن اصطادهم وهو يرمي سنارته في بحر الفيس بوك الازرق. قاربت الساعة على التاسعة مساءً حتى وصل المهرب بسيارة فان بيضاء مع سائقها، ركبنا السيارة بوجوه باهتة مصفرة، كيف لنا أن نثق برجال لم نعرف عنهم شيئاً ولم نقابلهم أبداً، كان السائق ضخماً ذو لحية طويلة شقراء، بصوت أجش ذو لكنة حموية، وصديقه المهرب كان أصغر منه حجماً والذي عرفنا فيما بعد بأنه ليس مهرباً بل لمّيماً (ينقل العابرين إلى بيوت المهربين). كان الخوف يكبر في داخلنا كلما تاه السائق في الطريق، كان يسأل طول الوقت عن قرية صغيرة اسمها (البالعة) مدعياً بأنه يسلك طريقاً جديداً لم يعبره من قبل، كان مظلماً تحفه البساتين من الجانبين، مرعباً إلى أن نرى ضوءاً خافتاً من أحد البيوت المختبئة بين الأشجار، ليقف السائق سائلاً أهل البيت عن تلك القرية المزعومة، لم يكن ربُّ البيت يخرج إلا وبيده السلاح، خائفاً من قطاع الطرق واللصوص، حتى يرى السائق رافعاً كلتا يديه ملقياً

عليه السلام. على بعد عدة أمتار منا لاح لنا رجال قاطعون للطريق، كانوا من عناصر الهيئة يقيمون حاجزاً، وفي حين عبورنا من جانبهم أخبرهم السائق بأننا في زيارة للأقارب، لأنهم لو علموا بذهابنا إلى الحدود لتقاضوا على كل نفرٍ منا مبلغاً ليس بالقليل، يصل المئة دولار، لا لشيء ولكنها ضريبةُ مغادرتنا للبلاد.

عندما تفكر بالهجرة، تصبح فريسة ينقض عليها الجميع، الكل يريد أن يكسب منك، أن يمتصوا آخر رمق لك في الحياة على أرض الوطن، أنت لست إنساناً له روحٌ بنظرهم بل أنت كتلةً من مالٍ تتحرك، وإن أردت النجاة فعليك أن تتخلى عن كل شيء، أن تصل إلى الجانب الآخر لا تملك ما يسد لك الرمق، وعلى الرغم من معرفتك لكل هذا فأنت مستسلم لما يحيكون مقابل الوصول إلى الأمان بعيداً عن الحروب و تجار البشر.

بعد انتصاف الليل وصلنا إلى القرية ليبدأ البحث عن المهرب الذي سيعبر بنا الحدود، من المحبط بألا أحد هناك يعرفه وهاتفه مغلق لا يجيب، ومع تأخر الوقت لم يكن لنا خيارٌ آخر سوى الانتظار حتى الصباح والنوم في السيارة.

قضاء ساعات تلك الليلة في السيارة لم يكن بالأمر السهل، كنت استرق دقائق النوم القليلة، أستيقظ على آلام عنقي بعد تدحرج

رأسي على النافذة، السائق ورفيقه يغطان في نوم عميق يدل عليه شخيرهما وكأنهما معتادان على المبيت في الطرقات، البنات استسلمن للنوم على الرغم من عدم تمدد أجسادهن وانحشار اقدامه الصغيرة بين المقاعد وميلان أعناقهن واستقرار رأس كلٌ واحدة منهن على كتف الأخرى. أما الصغيرة فكانت في حضن والدها الذي لم تغمض عينه قط.

بدأ التهليل والدعاء ليوم جديد يعلو سماء القرية من مئذنة مسجدها الصغير ليرتفع بعدها الآذان عالياً. أصوات أقدام المصلين التي تدعس على الحصى بدت كمعزوفة صباحية، وصياح الديكة المتناوب أيقظ شوارع القرية النائمة وكسر صمتها وآنس وحشتها، كنت أنتظر طلوع الفجر وشروق الشمس باللحظة، لم أكن أدرك بأن الوقت يقاسينا إن أعطيناه جلّ اهتمامنا، في حين كان يسرق منا سنين حياتنا في غفلة منا دونما استغلالٍ لكل اللحظات فيما نحب ومع من نحب.

في السابعة صباحاً، استيقظ الرجلان على صوت الهاتف المحمول، لقد كان المهرب بصوته المتثائب معتذراً بأن هاتفه كان فارغاً من الشحن, تذمر السائق وبدأ بالسب والشتم ثم أدار محرك السيارة وانطلق بنا.

سرنا في طريقٍ على حافة جبلٍ لنصل إلى بيتٍ تحيط به الأشجار، استقبلنا المهرب وعائلته، ولم تمض نصف ساعة إلا وازداد ضيوف البيت عائلة أخرى، كانوا من العابرين مثلنا، رجل مسنٌ وامرأةٌ خمسينية وفتاة في العشرين كانوا قادمين من دمشق حالمين بلقاء أبنائهم الشباب في تركيا. سرى حديث قصير بيننا لأعرف بأنهم لن يعبروا نفس الطريق الذي سأعبره، انتابت المرأة نوبة من البكاء خوفاً من طريقٍ ستعبره مع آلامها وأمراضها التي ستعيقها عن السير، حاولنا تهدئتها أنا وابنتها، أمسكت بيدي، نظرت إلى عينيّ باسمةً مطمئنة إلى حديثي عن الرحلة التي صورتها لها كما يلفق المهربين لجذب الزبائن. إلفة غريبة جمعت بين ذات الآلام والهموم، تبادلنا أرقام الهواتف للاطمئنان على بعضنا فيما بعد.

بعد ساعتين افترقنا ، ليذهب بنا السائق ورفيقه والمهرب إلى قرية تغوص بين الجبال في الطبيعة الخلابة، تعلو نهر العاصي لنصل إلى منزل عائلة جديد استقبلتنا بصدر رحب. الغريب في الأمر أن كلّ شخص من هؤلاء كان يتواصل مع آخر ليقوم هذا بالتواصل مع غيره لينقلنا من قرية لأخرى والكل كان يساوم على الأجرة.

شعرت حينها بأننا وقعنا في شبكة نصب لتجار البشر، يتقاسمون المال فيما بينهم لقاء نقلنا بين بيوتهم ولم نصل للمهرب الحقيقي الذي سيقوم بمهمة اجتيازنا للحدود.

جاء رجلٌ آخر أشعث الشعر وبدأ يتحدث لي عن طبيعة الطريق، لأدرك بأننا سنعيش تجربة المغامرة الأولى في السير والاختباء من الحرس والهرولة لحين اجتياز القسم الأكبر من الأراضي ليقطع بنا جرارٌ زراعي الحدودَ متنكرين بزيّ الفلاحين. بعد تلقيني تعليمات ما سأفعل تم نقلي أنا والبنات على دراجات نارية كي لا نلفت انتباه حواجز الهيئة الذين وإن علموا بنا سيأخذون حصتهم من المال. وصلنا قريةً صغيرةً على جبلٍ حدودي وإلى المنزل الذي كان المحطة الأخيرة ونقطة الانطلاق. كان بناءً حديثاً ذو أثاث وارفٍ وكأنه ليس في سورية المنكوبة، استقبلتني امرأتان شابتان مزينتان بالذهب والملابس الملونة واللتان كانتا زوجتي المهرب صاحب الطريق. تم الاستقبال في غرفة مخصصة للضيوف واحضرتا الماء البارد وصحن حلوى، وتركن لنا الغرفة لنأخذ قسطاً من الراحة بعد يوم شاق. لم تكن للراحة التي ينعم بها بعض البشر مكاناً في نفسي، حتى أصل إلى هدفي المعهود واتجاوز الحدود..

حل المساء، وكما اتفقنا مع المهرب ومعاونيه سننطلق في تلك الليلة، وعلى حين شرود مني صحوت على قرع الباب فإذا بأحدهم

جاء ليخبرنا أن موعد الرحلة قد تأجل إلى يوم غد وعزى ذلك إلى عدم اكتمال المجموعة وسننتظر عائلات أخرى. (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ترددت الآية في ذهني لتضفي على نفسي السكينة والهدوء، وإن كان انتظاري ليوم آخر زيادة في هدر ما تبقى لدي من صبر، فلابد وأن تكون مرافقتي لغيري من العابرين أنساً لي في الطريق.

مرت الليلة مفعمة بالأحلام، حلم الخلاص الذي بات بعيداً قريباً، صعباً وسهل المنال كما يروى لنا. في الصباح دعتني احدى النساء لارتشاف القهوة وتبادل الأحاديث، كان حسن الضيافة ما يميزهن عن غيرهن وما أثار استغرابي تلك المودة بين الضرتين، ربما المال هو الذي قد ألّف بين قلوبهم جميعاً, المال الذي يدفعه لهم الهاربون من الحرب، والذي جمعوه بجهدٍ وكدّ وتعب عام وراء عام، وذلٍّ وحرمان وألم. بدأ القلق يتسلل إلى قلبي بعدما سمعت حديث إحداهن الذي يتخلله بعضٌ من الشك لتخبرني أن رحلتنا تأجلت بسبب تغير مناوبة الضابط التركي الذي يتواصل زوجها معه، وبأن الأخير سيسعى جاهداً لتأمين الطريق الليلة لنعبر بسلام دونما مخاطر. مرَّ ذلك النهار ببطء سلحفاة كُسِرَت ساقها، ومع اقتراب المساء وصلت عائلة جديدة مكونة من رجل وزوجته وطفلان لتلحق بهم عائلة أخرى أمٌّ وأخوها وطفلان. اجتمعنا

جميعنا في ذات الغرفة بانتظار ساعة الانطلاق، كل عائلة منا اتخذت إحدى الزوايا مكاناً تسمرت فيه دون تبادل أي حديث بيننا، بعد بضعٍ من الوقت جاء رجل يشرح لنا خطة الطريق، ولكن ما أثار فزعه بأن إحدى النساء كانت حاملاً بأشهرها الاخيرة، فسألها عن قدرتها على المشي، لتتبين حقيقة الطريق الجبلية وطول المسافة التي سنقطعها سيراً على الأقدام، مع احتمال اكتشافنا من قبل حرس الحدود إن لم نصل لمكان الجرار الزراعي بأقصر وقت. لم تبد المرأة أي اعتراض لجهلها بطبيعة الطريق ولكن أخاها تجهم واستنكر بأنهم قادمون لعبور الحدود بالسيارة دون أن يخطو خطوة واحدة كما قيل له، ولهذا لم يكن ليغامر بأخته وأطفالها ويأتي، وخصوصاً أنها ليست فقط حامل بل مريضة قصور كلوي وقلب.

أثار وضع المرأة المريضة حفيظة الرجل وحتى نساؤه، لينكشف بعضاً من كذبهم بشأن الطريق الذي اشتراه المهرب من ضابط الحرس كما زعموا، عند محاولة إقناعها بالعدول عن المغامرة بحجة تعرض حياتها للخطر، ولكي لا تعيق عبور المسافرين الآخرين ولكنها تشبثت بقرارها

اخترت قضاء ساعات تلك الليلة في غرفة إحدى زوجات المهرب لتلحق بنا المرأة المريضة وأطفالها، وبقي أخيها والعائلة الأخرى لوحدهم.

عندما اقتربت ساعة الانطلاق جهزت نفسي وأيقظت البنات، شعرت بقليل من التوتر والحماس، أيقظت المرأة لتجهز نفسها وأطفالها بعد إعطاءنا للصغار منهم منوماً، خرجت زوجة المهرب لتوقظ الآخرين وليستعدوا مثلنا رفضوا الخروج وأخبروها بعدم رغبتهم بالمحاولة وذلك بسبب خداعهم، وبأنهم انساقوا وراء الإعلانات الكاذبة التي روّج لها تجار البشر من شراء للطريق وضمانته وخلوه من أية مخاطر، مع عدم الحاجة للمشي، وقد ظهر عكس كل هذا.

بعد كل ما سمعت ورأيت، لم يعد لي رغبة أيضاً بالاستمرار، رغم محاولة اقناعي من قبل المرأتين، فاضطررت لإظهار موافقتي لهم على البقاء، لكني دسست برسالة لزوجي الذي كان ينتظر في قرية أخرى بأن يأتي لنعود من حيث أتينا.

مع شروق أشعة الشمس غادرنا ذلك المنزل لنعود مع ذات السائق الذي بدأ بمحاولةٍ لإقناعنا بالذهاب إلى مهربٍ آخر لديه إذن ضابط مضمون ومن هذا القبيل ولكن مما رأيناه لم نعد نثق به.

عدنا مع خيباتنا هذه المرة أيضاً. وصلنا إلى مدينة الدانا التي تقع بالقرب من الحدود السورية التركية محاذية لمعبر باب الهوى، عند أحد الأقارب كانت محطتنا.

ما إن وصلنا حتى وصلتني رسائل واتس أب على هاتفي، وكانت من تلك الفتاة التي قابلتها مع عائلتها في أحد بيوت المهربين لتخبرني بأنها تجاوزت الحدود مع والديها وهم الآن في طريقهم إلى اسطنبول.. لتسألني عما إذا نجحنا نحن أيضاً، هنأتها في نجاحها وواستني في فشلي، فهل النجاح في الوصول إلى الطرف الآخر بات مستحيلاً بالنسبة لنا وبأن الظروف والأحداث تخبرنا بذلك، وهل علينا الاستسلام والرضى بالواقع أم الإصرار على تحقيق هدفنا...؟

كان صراعاً بين الحاضر والمستقبل، الواقع الذي يحكي قصة آلاف المدنيين القابعين في مناطق لا تعرف الأمان ولا الاستقرار ولا حتى فرص عمل إلا حمل السلاح لمن أراد البقاء، أو اللجوء إلى المخيمات التي لا ترد برداً و لا تقي من حرارة الصيف، هل نجاح تلك العائلة في اجتياز الحدود منحنا قليلاً من الأمل؟ لا أنكر بأني تحمست لإعادة التجربة على الرغم من كل تلك الصعوبات، متناسية العذاب والمخاطر في الطريق، حالمةً فقط في النتيجة...

بعد عدة أيام بدأنا بالبحث عن مهربٍ جديد، هذا يدلنا على ذاك وذاك يدلنا على آخر حتى استقر بنا القرار على أحدهم والذين شهدوا على وصول الكثير من العابرين عن طريقه، الاتفاق والانطلاق تم دون تردد، توجهنا إلى قرية المهرب والتي كانت إحدى قرى ريف إدلب الجنوبي القريبة من جسر الشغور.

استقبلنا في منزل مخصص للعابرين وكان ممتلئاً بعائلات وأفراد من شباب حالمين بمستقبل بعيد عن الحرب والنزاعات، وفتيات كتب لهن النصيب مع شباب مغتربين في الطرف الآخر وحلم اللقاء يتأرجح على الحدود.

جلستْ بالقرب منا امرأة عجوز، بدأت بسؤالنا عن حالنا وعن تجربتنا في العبور إن كانت الأولى أو سبق لنا المحاولة من قبل، كانت المرأة مرافقة لبناتها وابنها الشاب، وهي بانتظار وصولهم إلى تركيا لتعود إلى قريتها في عين العرب، وقد مضى على مكوثهم في هذا المنزل حوالي شهرين، مع محاولة اجتياز الحدود لخمس وعشرين مرة دون كللٍ أو ملٍ وكلها باءت بالفشل دون استسلام، أما الآخرون فكان عدد محاولاتهم أقل بكثير وبتفاوت.

كان حديثهم يولد في نفسي الإحباط أما هم فكان وجودنا معهم يبعث في نفوسهم الأمل (إن شاء الله على وجوهكم لح نقطع الحدود

اليوم بحسنة هالبنات). في الساعة الثالثة بعد الظهر جاء المهرب والدليلة ليجمعوا كل من في البيت للتجهيز لساعة الانطلاق، هم كانوا معتادين على هذا البرنامج يتجهزون ويلبسون الأحذية الرياضية ويتناولون الطعام بشهية كوقود للسير، أما نحن فكانت أنفسنا كارهة لكل شيء ولا تشتهي أي شيء سوى الماء.

جاءت سيارة شاحنة (هونداي) مغطاة بشادر لنقلنا إلى قرية (الدرية) القريبة من الحدود. صعدنا جميعاً، النساء والفتيات والأطفال ليتم حصرنا الواحدة بجانب الأخرى، ثم صعد الرجال والدلّيلة وراءنا. تم حشرنا بتلك السيارة دون مراعاة لإنسانيتنا، إن تألمنا أو اختنقنا لا يهم، كنا كالبضاعة وليس بشر، لذلك علت أصوات النساء مستنكرة نقلنا بهذه الطريقة، قالوا إنها المرة الأولى بسبب العدد، فقلت في نفسي(إنه حظي) وهذه هي البداية (الله يجيرنا من القادم.(

مشت السيارة وزادت آلام جسدي الذي يعتصر بين الأجساد، وآلمني قلبي على بناتي اللواتي حشرن أنفسهم بجانبي والصغيرة النائمة في حضني لا تدري ما يجري من حولها. بعد ساعتين كانتا كدهر من الأوجاع وصلنا مخيم الدرية لنرمي بأجسادنا خارج السيارة، أطأ الأرض بأقدام مخدرة، كيف سنعبر الحدود وقد فقد أغلبنا طاقته على الطريق؟ كان سؤالاً يدور في ذهني، ترعبني

الفكرة، تخنقني العبرة، أنظر إلى الجبل أمامي، إلى المئات من الفارين من الحرب، جلّهم من الأطفال والنساء.

وبانتظار حلول المساء تم تقسيم جميع الحاضرين إلى فئات لتعبر كل واحدة منهن طريقاً مختلفاً عن الآخر، مراعين بذلك كبار السن والعائلات كلٌّ حسب همته على المشي وصعود الجبال، تم اختيارنا من بين فئة الشباب ليكون لنا الطريق (الطويل .(

اصطفت مجموعتنا على شكل طابور واتخذ الدلّيلة أماكنهم في المقدمة والمؤخرة، وبدأ السير في وادٍ بين جبلين شاهقين. لم يكن الطريق صعباً في بدايته، كان طلوعاً ونزولاً خفيفاً، وكنا نحاول أنا وعائلتي أن نحافظ على المسافات بيننا وأن نكون أكثر قرباً من بعضنا البعض، مع اشتداد الظلام والعبور بين الأشجار الكثيفة تنعدم الرؤية ويكاد أحدنا لا يرى الآخر، أمسكت بأيدي ابنتي وتتبعت خطوات زوجي كي لا يغيب عن ناظري، بدأ الطريق يضيق ويتعرج، يقف الّدليلة ليساعدوا أفراد المجموعة على عبور الممرات المائية والتي يتم اجتيازها عبر جسور ضيقة، بعد بضع خطوات تهمس لي إحداهن من الخلف (هون بهالزاوية جثة امرأة ماتت من يومين، وقف قلبا من التعب، تركوها أهلها وراحوا). اقشعر بدني وارتجفت قدماي، أسرعت بخطواتي لأبتعد أكثر عن المكان، إلى أن طلبوا منا التوقف والراحة قليلاً.

بدأ الدلّيلة بالحديث بين بعضهم لترتفع أصواتهم وتعلو الشتائم، حاول الرجال تهدئتهم دون جدوى، لم نعرف سبب الخلاف ولكن كان واضحاً على أحدهم الغضب وعزم على العودة، همس لي زوجي (لن ننجح اليوم باجتياز الحدود فالمكتوب مقروء من عنوانه). بعد حوالي نصف ساعة تابعنا السير حيث بدأ الطريق بالارتفاع أكثر فأكثر، لم أعد أقوى على المتابعة، أقف لأسحب أنفاسي المعجونة بالغبار، ليجف حلقي كصحراء يابسة، أحدهم يدفعني من الخلف، كان زوجي قد لاحظ تقصيري فسار خلفي ليساعدني على الصعود وليبقى ملازماً لي، بعد السير لعدة ساعات تتخللها دقائق من الاستراحة، وصلنا إلى قمة الجبل وعلى السفح جلسنا جميعاً، (هلأ هون مافينا نتحرك ونتقدم لنكتشف الطريق، في عسكر عم يضوي بالكشاف) قالها أحدهم. كان الدلّيلة شباباً في مقتبل العمر قد اتخذوا هذا العمل ليس فقط لكسب المال بل للتسلية أيضاً وهذا ما لاحظناه، وعلمنا حينها سبب محاولاتهم العديدة دون النجاح في العبور. كان من بين مجموعتنا فتيات قاصرات قدمن لوحدهن للعبور إلى تركيا للحاق بمن اختاروهن زوجات وتم عقد القران غيابياً، أما غيرهن فقدمن مع أهاليهن لإيصالهن لأزواجهن حتى ولو اضطر الأهالي للعودة. في هذا الوقت يتم استغلال الفتيات ليختار أحد الدلّيلة إحداهن للذهاب معه واكتشاف الطريق كي لا يتم إلقاء القبض عليه أو قنصه إن ذهب وحيداً، ومع خبث الدليل وجهل

الفتاة يضع يده في يدها ويغيب بها بين الأشجار ليعودا بعد ذلك تملؤهما الضحكات على أنه كاد أن يتم اكتشافهما من قبل حرس الحدود.

يمضي الوقت طويلاً بالحديث بين الدلّيلة والفتيات وحتى النساء الأرامل بحجة مساعدتهن في حمل أطفالهن، لينسوا أنفسهم بأنهم على الحدود وعليهم أن يكونوا أكثر صمتاً وحذراً، أما أنا وعائلتي فتجمعنا ككتلة واحدة نرتجف من البرد. البنات خلدن للنوم وأنا كنت أراقب النجوم الممتدة في السماء، كم تمنيت حينها أن أكون طيراً لا يأبه للحدود ،أو أن أكون نجماً لا يمت لهذه الأرض بأية صلة.

****

انفجر المكان ضوءاً خاطفاً، لنتبعثر كحبات سبحة قُطع خيطها، تدحرجاً، ركضاً، نرتطم ببعضنا البعض لنصل إلى الوادي بعيداً عن أنظار الحرس الذي اكتشف وجودنا ليتم طردنا بإطلاق رشقات من الرصاص في الجو. كان ضوء الفجر قد جلا عتمة المكان، وبدا الطريق أشبه بوادي الموت لتضاريسه المخيفة، كنا قد سلكنا حافة وادٍ شاهق تنمو الأشجار على حوافه بطريقة عجيبة، لم يكن طريق الصعود مرعباً بقدر ما كان عليه طريق العودة، فعتمة الليل قد أخفت كافة التفاصيل.

بمساعدة الدليل كنا نعبر أماكن الخطورة، حتى وصلنا إلى نهاية الجبل، تابعنا المسير بصمت تعكره أصوات ارتطام الأقدام على الأرض، إلا من عاد دون حذاء لم يحظ بمشاركة المجموعة تلك الأنغام بسبب آلام انغراس الاشواك والحصى بأقدامه التي عانى منها.

عند المخيم تم التقاء جميع المجموعات التي عاد أغلبها خائباً، وجوه بعض الشباب كان متورماً مزرقاً تلطخه الدماء، عند رؤيتي لأحدهم اعتقدت أنه سقط على وجهه لوعورة الطريق، لكن عندما شاهدت غيره قد شاركه المصاب، علمت بأنهم قد نالوا حصتهم من الضرب على أيدي الحرس بعد إلقاء القبض عليهم وطردهم. كانت السيارات بانتظار العائدين، وكانت بانتظارنا تلك العجوز في المنزل لتواسينا بخيبتنا.

في اليوم التالي تم نقلنا إلى نفس المكان لنحاول مرة أخرى، وعند المخيم انتظرنا مغيب الشمس للانطلاق، كان الأمر أكثر جدية، سلكنا ذات الطريق، لم يكن المهرب بأن يسمح لنا بالراحة لأكثر من دقائق، لا أحاديث، لا خلافات، لا تباطؤ في السير. سلك الدليل بنا طريقاً جديداً، كان شديد الارتفاع مع رخاوة الأتربة، لتنزلق الأقدام أثناء الصعود ، كنت في آخر المجموعة، تسحبني ابنتاي من يدي لتساعدنني على الصعود للحاق بالفريق، يكاد فمي

يلثم التراب من شدة التعب، ألقي بنفسي على الأرض عاجزة عن المتابعة، كنت أشعر بأن نهايتي كتلك المرأة التي فقدت حياتها وهي هاربة من الموت لتلقاه ولم تجد من يدفنها.

بدأنا المراوغة كعصابة تتسلل من تحت شجرة لأخرى، كي نتوارى عن أعين الحرس، حتى وصلنا إلى مكان عالٍ، لنبتعد عن أماكن انتشار الحرس في الوادي لنشاهدهم وهم يلقون القبض على مجموعات غيرنا، بعد انتظار بضع دقائق أمرنا المهرب باللحاق به بسرعة، نهضنا جميعاً راكضين وراء بعضنا البعض، نزلنا إلى طريق ترابي قد تم تجهيزه لبناء الجدار العازل، انحرفنا لنسير على حافة طريق ضيق، حتى بدأ إطلاق الرصاص فوق رؤوسنا مع صياح الجندي بأن نتوقف، تبعثرنا، عدنا للوراء، سقطت أرضاً، جثا الجميع على ركبتيه مع وضع الأيدي فوق الرأس، بدأت دموع الخسارة تنهال فوق وجنتي. تم اقتيادنا إلى ساحة في الوادي الذي يتربصون به، كانوا قد أمسكوا بالكثيرين مثلنا، تحدثوا معنا بلغتهم لم نفهم ما يقولون، تحدثت معهم باللغة الانكليزية، رجوتهم أن يسمحوا لي بالعبور ورؤية والدتي، كان جوابهم لا.

قاموا بتجميعنا واقتيادنا إلى ما وراء الجدار حيث الضابط ودبابته قد اتخذ من قمة الجبل مرصداً له يرى من خلاله جميع المتسللين بأجهزة حديثة، كان عددنا بالمئات، افترشنا الأرض، فنام من نام

وبقي جالساً من بقي، كنت وعائلتي من بين النائمين، استيقظت على صوت أحد الجنود وهو يشعل ناراً لتدفئة النساء والأطفال، وعلى صوت إحداهن تبحث بين الجموع عن طفلها الذي كان يحمله أحدهم وأضاعته. بدأ أحد الجنود بالصياح بنا كي نقف ليتم اقتيادنا إلى مكان آخر، بدأنا السير مع الجموع الغفيرة لا نعلم أين سنذهب، قطعنا الجدار العازل الذي لم يكتمل بناؤه بعد في تلك المنطقة، كان الجنود برفقتنا مع أسلحتهم التي يطلقون منها الرصاص فوق رؤوسنا بين الحين والآخر، بدأنا السير على حافة جبل عال لا يتسع إلا لمسير شخص واحد، كنا رتلاً طويلاً لا يُرى أوله ولا آخره، كان المشي بطيئاً خشية الانزلاق والسقوط، بعد مسافة طويلة وصلنا إلى ساحة لتجمع الآليات العسكرية حيث نقطة مراقبة، جلسنا على الأرض جميعاً، بدأ الجنود بالتنقل بيننا مرددين كلمات لا نفهمها، واقتياد بعض الشباب من الموجودين إلى ما وراء ستار لنسمع أصوات لطم الوجوه ليعودوا إلى أماكنهم بصمت.

كانت الشمس قد أشرقت وبدأت تلسع رؤوسنا، تابع بنا الجنود المسير حتى اجتزنا الشريط الشائك ومنه إلى الأراضي التركية، لتحمد ابنتي الوسطى الله على وصولنا وعدم ضياع تعبنا، لم أفسد فرحتها بل تركتها لترى ما سيحدث بعدها.

وصلنا إلى مخفر حدودي فيه ملعب كبير مسور تم حجزنا جميعاً فيه تحت حراسة من بعض الجنود، بدأت حرارة الشمس تشتد أكثر فأكثر، لا مكان يستظل به سوى رحمة الله، أطفال ونساء ورجال من مختلف مناطق سورية اجتمعوا في هذا المكان بعد أن كان حلمهم بالخلاص قد تبخر، جلس البعض وبقي واقفاً البعض الآخر، بانتظار مصير نجهله ونحن نرقب بقلق تحركات الجنود. بعد قليل جاء أحدهم حاملاً صناديق دخل بها إلى الملعب، أمر الجميع بالاصطفاف ليتم توزيع المياه والبسكويت عليهم، اصطف القسم الأمامي وبقي القسم الخلفي جالساً حيث كنا، بدأ بعض الجنود بالضحك وبالحديث بلغتهم التي لا نفهمها سوى قوله ما شاء الله، هل كان يهزأ بفشلنا، أم يسخر على أعدادنا الكبيرة التي تجمهرت على الحدود تاركين وطناً ينزف، والبقاء فيه كمن يجلس في كومة ألغام.

وصل أحد الضباط كان واضحاً على هيئته الغضب وكأنه استدعي للمناوبة مرغماً، دخل إلى الملعب وبدأ بضرب بعض الشباب الواقفين في الأمام بعقب السلاح، ومنع توزيع المياه وأمر الجندي بالخروج، بدأ بالصياح والكلام وألقى الأوامر على الجميع لأن يقفوا في صفوف منتظمة، يضرب من يراه أمامه، باحثاً عن المهربين دون أن يدلي أحد بهم، ليتقدم أحد الرجال ويخبره بأن

المهربين جميعهم قد هربوا وتركونا، جاء آخر يحمل أوراقاً بيده فهمنا حينها بأنهم يريدون تدوين أسماء جميع الحاضرين، اتفقنا أنا وعائلتي على أسماء وهمية كي لا ندلي بأسمائنا الحقيقية، كانت ابنتي الصغيرة حينها قد استيقظت من نومها بعد زوال تأثير المنوم عليها، بدأت تلتفت يميناً وشمالاً ماسكة بكلتا يديها حول عنقي، ثم بدأت بالبكاء. حاولت اسكاتها أنا ووالدها دون جدوى، بل زاد صراخها أكثر، بدأ كل من حولنا بالنظر إلينا، سألتهم إن كانوا يحملون ماءً أو شيئاً من طعام، لم يكونوا أحسن حظاً منا لأنه نفد لديهم الماء ولم يصلهم مثلنا نصيب مما قد تم توزيعه.

صراخها بدأ يحفر في قلبي دون توقف، كان دورنا لتسجيل أسمائنا ما زال بعيداً، وقفت عاجزة عن اسكاتها، لم يكن بيدي حيلة سوى مشاركتها بالبكاء، بكيت حرقةً على حالنا وعلى ما وصلنا إليه، كان بكاؤنا يصل عنان السماء داعية الله بالخلاص. قررت اقتحام الصفوف والوصول إلى الجندي الذي يدوّن الأسماء، أشرت له إلى ابنتي التي لم تتوقف عن الصراخ، كان منظرنا لا يستدعي لأن ينتظر أو أن يرفض، فهم طلبنا، سجل أسماءنا وتقدمت إلى الأمام، بدأت بسؤال الناس عن شيء ما بحوزتهم، والحمد لله أسعفوني بقطع بسكويت وقليل من الماء أُسكت فيهم جوع ابنتي التي بدأت تهدأ، وانتظرت باقي أسرتي للقدوم إلي، نظرت حولي

باحثة عن أحدٍ من أفراد مجموعتنا التي خرجنا معهم، لم أرَ أحداً، وكأنهم اختفوا مع المهربين، انتهى تسجيل أكثر من نصف الحاضرين، وقفت أنا وعائلتي بالقرب من الباب لنخرج مبكراً، جاءت عدة باصات لتنقلنا إلى أقرب معبر والعودة إلى سورية، بدأ الناس بالتدافع وبدأ الجنود بدفعهم وضربهم، واصطف البعض الآخر ليحظى بخروج آمن من المخفر، امتلأت الباصات ورحلت وبقي آخرون مثلنا بالانتظار.

حرارة الشمس والإرهاق ذهب بآخر قوانا حتى جاءت باصات أخرى ورحلنا نجر ذيول الخيبة، كان ذلك اليوم درساً لنا لنتوقف عن المحاولة في اجتياز الحدود عن طريق المهربين وبدأنا بالبحث عن طرق أخرى.

****

بعد خيباتنا تلك التي قد سلبت منا الأمل بالخلاص، قررنا أن نرتاح بعضاً من الوقت لنستجمع قوانا النفسية والعقلية، فزرنا بعض الأقارب في المخيمات والقرى الحدودية الذين قد هاجروا من القرية بعد هجوم داعش إليها وقد ورد ذكر الحكاية سابقاً، لم يكن نازحي تلك المناطق بالقدرة على استيعاب أفراد جدد معهم في

أماكن إقامتهم، أوضاعهم لم تكن تشجعنا على التفكير في الاستقرار بل تزيدنا رغبة أكثر في الهجرة.

بين ريف حلب وريف إدلب كنا نمضي إقامتنا حتى لاح ضوءٌ من الأمل في الأفق، والدخول من المعبر الحدودي وبأوراق مختومة من الوالي جهزها أهلي في الداخل التركي.

بدأت رحلة انتظار صدور قرار موافقة الدخول وهنا الامتحان الأصعب للصبر، تمضي الأيام دون نتيجة، وعودٌ وأحلام يقتلها الوقت، ظروفٌ عديدة تعيق سير الأمور وتحول دون اقتراب الفرج، الذي كنت أراه مستحيلاً..

تتعاقب الأيام وتتشابه، ويكاد الصبر ينفذ، بات كلّ ما يحيط بي يحكم بقبضته حول عنقي، لم أعد أطيق حتى نفسي.

مضى شهران على تلك الحال، حتى الفرج بدا بعيداً بُعد السماء وكلّ يوم حدثٌ جديد يحول دون تمام الأمر.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أخبروني به بضرورة الذهاب إلى المعبر وانتظار الدخول، ذهبنا والفرحة تملأ قلوبنا ولكن لم تدم طويلاً بل بدأت بالتلاشي في الانتظار على البوابة، لا اسم... لا دور...لا شيء..

بقينا ننتظر حتى المساء وعدنا مكسوري الخاطر.

أمي التي كانت بانتظاري قد تبددت فرحتها بلقائي ، إلى متى؟؟..

بت أرى اللقاء بعيداً بعيداً، كم من العذاب سنذوق مقابل تحقيق هدفنا، وكم من سياط الشوق ستجلد قلوبنا ونحن في كل يوم نرسم لوحات اللقاء وتتبدد كأنما نرسمها من دخان، نلاحقها بأيدينا، نحاول الإمساك بها فلا نجد سوى الفراغ..

إلى متى؟؟...كنت أرددها في ذهني في صباح ذلك اليوم، الذي استيقظت فيه ولا رغبة لي في الاستيقاظ ولا حتى رؤية أحد، حتى إني تأخرت في تفقد هاتفي و ما قد يردني من رسائل إلى ما بعد الظهر، حيث خرجت إلى الشارع لالتقط إشارة انترنت بسبب اقامتنا في قبو وما قرأته حينها لم أصدقه ولكنه كان كفيلاً بتغيير جريان الدم في عروقي.

نزلت مسرعة لأخبر زوجي وخالي اللذين لم يصدقا واعتقدا بأن الأمر كما السابق، ولكن مع إلحاح ما ورد في الرسائل، لملمت أشيائنا دون إدراك، وخرجنا تحت زخات المطر، و ما إن وصلنا إلى البوابة حتى وجدنا أسماءنا مع قوائم المسافرين.

شعرت وكأني في حلم، ودعنا زوجي آملاً اللحاق بنا فيما بعد.

في المعبر كان كل شيء سهلاً وروتينياً حتى وصلنا إلى الجانب التركي، تسارعت دقات قلبي حين رأيت الكثير ممن تم رفض دخولهم لأسباب عديدة وقد خشيت أن أكون من بينهم. تابعت تقدمي إلى الموظف، ناولته جوازات السفر، دارت الأرض بي عندما قال أن البنات لا يوجد لهن موافقة دخول، لم أعرف ما أقول له حتى تابع سؤاله عن وجهتي فأخبرته، أعاد لي أوراق البنات وبقيت أوراقي التي أعطاها للموظف الذي يجاوره، كان يتكلم العربية، سألته ماذا سأفعل الآن؟ هز لي برأسه وتابع عمله، فهمت منه بأنني سأدخل مع البنات ولكن الخوف والقلق ما زال ملازماً لي حتى أنهيت جميع الإجراءات في آخر دقائق الدوام، وعندما انتهيت كان زوج أختي بانتظاري هناك. وفي طريق ذهابنا إلى بيت أهلي لم أكن أصدق بأنني سأراهم، حتى وصلنا إلى الباب، لا أحد بانتظاري في الخارج كما تخيلت، فزوج أختي قد آثر الصمت على إخبارهم بدخولي، خرجت أختي لتتفاجأ برؤيتنا، حضنتها وبكيت، خرجت أختي الثانية والثالثة، أبحث عن وجه أمي بينهم، وما إن أطلّت علي حتى فقدت وعيها وسقطت أرضاً، أسرعت إليها وأنا أصرخ بأعلى صوتي، لا أريد أن تتأذى أمي بسببي أو أن أفقدها بعد أن التقيت بها، أمي لقد جئت استيقظي، فتحت عيناها غير مصدقة ما تراه، كان اللقاء جميلاً، مليئاً بالدموع وبأحاسيس لا أستطيع وصفها ولكني أتمناها لكل من يشتاق لقاء أهله وأحبته....

سأنهي الحكاية إلى هذا القدر، ربما بنظركم قد أطلت السرد ولكنـي اختصرت الكثير الكثير، سبع سنوات في الحرب لا تُكتب في بضع سطور أو عدة حكايا ، فالخوف والفراق والألم لا يُكتـب بـالحروف أبداً.

فالحمد لله الذي جمعني بمن أحب .

****

الأخوين

عدنا وحيدين كما كنا ..لخطواتنا فوق هذا الطريق حكايات، منذ أن كنا أطفالاً حتى المشيب، اعتدنا أن نسير معاً، نركض معاً، نسابق الريح ونلهو بين الأشجار حتى المغيب، نعود مساء إلى بيتنا، تستقبلنا أمي بابتسامة حيناً وبتوبيخها لنا حيناً آخر. لطالما كانت أختي تعود بفردة حذاء واحدة، والفردة الأخرى تكون قد ضاعت ونحن نركض ونتسلق الجبل. كنا نتسابق لتقبيل يدها وكسب رضاها، فنشتمّ منها رائحة الخبز المحمّص وشوربة العدس التي طالما سررنا برؤيتها ساخنة على المائدة.

كبرنا وليتنا لم نكبر، فالأشياء الجميلة توارت في مقبرة الذكريات، كأمي التي وارياناها في مقبرة البلدة بجانب قبر والدي الذي لا نتذكر ملامحه، وكأنّ الحياة كانت تنتظر أن يشتدّ عودنا لتصبّ جام غضبها علينا وتجلدنا بسوط الأيام. بقينا وحيدين، يتيمين أنا وأختي، نتقاسم الفرح والحزن فيما بيننا. تزوجت أختي بعد زواجي بعدة سنوات، لكنّها لم تنجب، فكانت كشجرة لا تثمر اقتلعها الفلاح من جذورها ولم يسعى في علاجها، في حين أني كنت صابراً منتظراً حمل زوجتي الذي تأخر. عادت أختي إلى بيتنا مكسورة الخاطر، ضممتها تحت جناحي، وكنت لها الأب والأخ والصديق، ولم أرَ

ابتسامتها وبريق عينيها بذاك الجمال مثلما رأيتهما في ذلك اليوم، عندما صرخ طفلي الأول متنفساً الهواء لأول مرة وهو خارجٌ من رحم أمه، ليعلن عن بدايةٍ جديدة لحياتنا. أحبته أختي كثيراً, وكم كانت تتشاجر مع زوجتي لأجله، فيما أيهما تقوم برعايته. أنجبت زوجتي أبنائي الثلاث، لأراهم سكينتي وسكوني وكل أملي، أرعاهم بماء العيون، وكان لأختي نصيباً في رعايتهم وتقاسمت مع زوجتي محبتهم.

كَبُرَ الأطفال أمام عيوننا، وكانت الأيام تمرّ سريعاً كجري السحاب، لكننا لم نكن نعلم بأنها ستقف يوماً وتمطر علينا المحن، باعتقادها أننا نمتلك صبر أيوب أو لنا جَلَداً كجَلَد يعقوب على غياب يوسف.

اختبرت الحياة صبرنا عندما ذهب ابني البكر إلى خدمة العلم، هو نفس العام الذي أصيبت فيه زوجتي بذات الرئة. بدأت الحرب على حين غرّة، وبدأت معها بسلخ قلوبنا بكل ما فيها من قسوة، وانقسم أبناء الوطن إلى فئتين, تقاتل إحداهما الأخرى، وبات في البيت الواحد أكثر من رأي بين مؤيد ومعارض لما يحدث. لم يبق شابٌ في هذا الوطن إلا وتجرع نصيبه من مرارة الحرب, وذاق أهله لوعة فراقه، سواءً غادر البلاد هرباً من سوقه للتجنيد

الإجباري أو انخرط بصفوف المقاتلين من أحد الطرفين، وقد يسقط شهيداً في ساحات المعارك.

بات الذي كان فرحاً بإنجاب الذكور يغبط أولئك الذين حرموا من هذه النعمة التي غدت نقمة في زمن الحروب. لقد فقدت أبنائي الأول والثاني في إحدى المعارك الطاحنة، وما حنى ظهري أكثر إلا أن أحدهما كان يقاتل ضد الآخر، ولم تتحمل والدتهما خبر فقدانهما، فسلمت الروح إلى بارئها. أما ما عمله ابني الثالث فقد كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير، تركني أنا وعمته وحيدين، راكباً البحر وقاطعاً آلاف الأميال لترسي به دفة الأيام بعيداً في البلاد الأوروبية.

بقينا وحيدين، كيتيمين كما كنا، نرمم جراح بعضنا البعض، وقد داهمنا المشيب وحفر الزمن أخاديده في وجوهنا، وترك الحزن أثره عميقاً في عيوننا. ألا ليتنا نعود أطفالاً، أكبر همنا من سيسبق الآخر في هذا الطريق الذي لم تتغير ملامحه كما تغيرنا، ولا ذاك الجبل الذي كان يسرق أحذية أختي. بتنا وكأنّ الدنيا مضغتنا كعلكة بين فكيها وما إن سئمت منا حتى رمتنا منهكين، وقد حفرت بأسنانها على أرواحنا وقلوبنا جروحاً عميقة.

- عدنا وحيدين كما كنا.

- ما الذي تقوله يا خالد؟

- لا شيء يا صفية، هل تذكرين كم مشينا سوياً على هذا الطريق؟

- تقول أنك تبحث عن رفيق أو أني لم أسمع ما تطيق؟ تقصد العصا؟

ضَعُفَ سمع أختي كثيراً، في حين ضعف بصري .

وتابعت:- أتحسب نفسك شاباً تحسن السير دونها، فوالله ما إن تمشي بلا عصا حتى تسقط على وجهك، ويتكسر ما تبقى من أسنانك.

ضحكت لكلامها ولروحها الجميلة التي لم تفقدها رغم تلك الآلام، فلولاها لكنت الآن بجانب زوجتي وأبنائي في قبورهم.

- أقول، هل تذكرين عندما كنتِ تعودين إلى البيت بفردة حذاء؟

- تقول بأن الغيوم تملأ السماء؟

- آه يا أختي.. لم يبق لنا رجاء إلا أن يرحمنا الله.

★★★★

مولودٌ من بين الركام

اشتدّ بها ألم المخاض، في ذلك اليوم الصيفي، كانت تنتظر بشغف آلامها التي ستنم عن رؤيتها لمولودها البكر بعد انتظار سنوات من الحرمان. تم نقلها إلى مشفى البلدة التي تشهد تحركات عسكرية غير معهودة. صرخ الطفل.. صوت انفجار ضخم على بعد كيلو متر واحد ، تلاه انفجار ثاني وثالث ، أسرعت الممرضات لتوضيب الوليد وأمه.

-الطفل لا يتنفس جيداً بحاجة إلى حاضنة.

-لكن الوضع في الخارج لا يطمئن وربما تعرضنا لهجوم.

-وإن يكن، نحن في مشفى ولا نستطيع المغادرة، اضبطوا الأقسام جميعها وكونوا على استعداد لاستقبال الجرحى.

صوت رشقات الرصاص كزخات المطر، وانفجارات القنابل اليدوية وسيارات الإسعاف تأتي تباعاً لنقل الجثث والجرحى من مدنيين وعساكر، غدا المشفى كخلية نحل نشيطة، دماء على الأرض، جرحى على الأسرّة، جرحى في الممرات، ضوضاء وتأوهات لا تُسمع إلا في حالات الحرب. لحظات والجميع يقوم بمهامه، سُمع صوت الطيران الذي بدأ بتفريغ حمولته على البلدة

دون تمييز، على البيوت، الجوامع، المدارس، وحتى المشفى الذي يضم مئات الجرحى.

أصاب صاروخٌ القسم الشرقي للمشفى، هرع الجميع للخروج، تُرك من تُرك على سريره ليستطب بالموت، وخرج من كُتبت له النجاة. خرجت ليلى مع عائلتها وهي تصرخ طفلي, طفلي.

سقط صاروخ آخر على البناء، لم تعد هناك فرصة للبحث عن الطفل ولا حتى العودة إلى الوراء، اختبأ سكان البلدة في الأقبية والشقق الأرضية وباتوا ليلتهم يقظين خائفين تمرُّ عليهم الساعات وكأنها دهر من نار ودموع، وصوت المعارك لم يهدأ حتى طلوع الفجر، بعدها حالة من الهدوء عمّت الأرجاء. كانت فرصةٌ للناس للهروب خارج البلدة بعيداً عن المعارك، والبعض قصد الملاجئ في المراكز التجارية الكبيرة دون أن يعلموا الحال الذي سيؤول إليه، لأن الحرب عندما تبدأ لا تعرف كيف تخمد وكم من الضحايا تحصد.

اجتمع المئات في ذات المكان، المئات التصقوا بجانب بعضهم البعض خوفاً ورعباً. جلست ليلى بجانب الحائط ، وقد نسيت آلام المخاض بالألم الذي اشتعل في قلبها لفقدانها وليدها الذي لم يتسن لها أن تشمه وتضمه أو حتى أن تضعه على صدرها وتلمسه.

- وليدي ، حبيبي ، يا ليتني بقيت بجانبك.

- اهدأي يا ابنتي أرجوك ، الله خير حافظٌ إن شاء الله، ستضرين بنفسك إن بقيت على هذه الحال.

- وما همي بنفسي بعد اليوم يا أمي ، وقد فقدت ابني قبل أن أراه.

بعد أن اشتدت أشعة الشمس، عادت الغارات تبث جام غضبها على البلدة، غارةٌ تلو الأخرى، ولو أصابت احداهن المكان لغدا كتلة لحم بشرية معجونة بالدماء والدموع. هدأت الغارات قليلاً بعد الظهر، وبدأ الناس بتفقد بعضهم البعض، التمسوا قليلاً من المياه ليرطبوا حناجرهم التي جفّت من الصراخ، حامدين الله أنهم مازالوا أحياء. وليلى لا تزال تنتحب على وليدها.

هدوءٌ قلق خيّم على الملجأ ، صوت أحدهم ينادي وهو قادمٌ من الخارج متجاوز الكتل البشرية المتراصة بجانب بعضها البعض.

- من منكن ولدت البارحة؟

صرخت احداهن : ابنة عمي، لكن لا أعلم إن كانت معنا هنا أم في مكان آخر .

- سيدتي أنا أبحث عن امرأة ولدت البارحة في المشفى قبل الغارات وخرجت دون طفلها.

- عفواً ، أخطأت، ابنة عمي ولدت في المنزل.

استمر الرجل بالبحث بين جموع الناس وهو ينادي حتى سمعت ليلى الصوت فقفز قلبها.

- أنا، أنا، وليدي أين هو ؟

تقدم الرجل نحوها وسألها: هل رأيتِ ابنك؟ هل تعرفيه؟ من رآه من أقربائك ليتعرف عليه؟ لا أستطيع تسليمه لأحد دون أن أتأكد من أهله، لأننا لم نجد سواراً باسم والدته على يده.

- أرجوك، أريد أن أراه، أنا متأكدة بأنه ولدي، قلبي لم يهدأ طوال الليل وأنا على يقين بأنه لا يزال حياً.

- لقد عدنا إلى المشفى فجراً لننقذ الجرحى ونجلب المستلزمات الطبية منه ووجدنا الطفل في الحاضنة بين أكوام الحجارة ولا يزال على قيد الحياة ولم يمسسه سوء .

ثم أردف قائلاً: سنقوم بنقلك خارج هذا المكان، لا نستطيع أن نأتِ بالطفل إلى هنا. وافقت على الخروج مع الرجل وقلبها يقفز أمامها

لترى وليدها، وما إن رأته حتى انهمرت دموعها غزيرة على وجنتيها.

- إنه ولدي وكيف لا أعرفه، فقد رآه قلبي قبل أن تراه عيني .

كم خشيت أن أفقده، لكنَّ الله لم يحرمني إياه، وخرج لي من بين الركام.

★★★★

ما وراء البحار

وقفتُ على شاطئ البحر أتأمّل أمواجهُ الرقيقة، وضوءُ القمرِ المسكوب على مياهه يضيفُ إليهِ بريقاً ساحراً. هذا البحر كان الحدَّ الفاصل بين حياتي وموتي، بين حاضري ومستقبلي، بين أن أكون أو لا أكون، حينما وضعتُ قدمي في قاربٍ مطاطي مع العشرات من المهاجرين, بل بالأحرى الهاربين من موتٍ محتوم ومستقبلٍ مجهول، إلى بلادٍ غريبة ومستقبلٍ أكثر غرابة, لم أكن أفكر حينما قررت الهجرة سوى بحياتي التي توقفت بعدما كنت أرسم الأحلام وأسعى لتحقيق أهدافي عندما وصلت إلى أكثر السنوات الحاسمة في تحديد مصيري.

كنت طالباً في الثانوية العامة عندما اشتعلت نار الحرب في بلادنا، هُدم بيتي ومدرستي وتشردتُ أنا وأمي هائمين في أراضي الوطن، باحثين عن مكانٍ أكثر أماناً بعيداً عن المعارك. لم أستطع تقديم امتحان الثانوية العامة ، بعدما كنت أنتظرها بفارغ الصبر, وحلمي بأن أكون مهندساً قد تبخر كما تتبخر مياه هذا البحر.

تحطمت نفسي كما تتحطم قوارير الزجاج، لم يعد لي رغبةٌ بأن أعيش، قررت الالتحاق بصفوف المقاتلين، لكنّ أمي التي لم يكن لها ولدٌ سواي، انهارت باكيةً على الباب لتمنعني من الخروج،

راجيةً أن أعدل عن قراري، داعيةً لي بأن يزيل الله همي ويعوضني خيراً. لطالما كانت تُهدئ من روعي وتمسح عني حزني، ولا تكف عن ترديد (كلّه خير، لعلّه خير يا ولدي).

كنت أوافقها بهزةٍ باردةٍ برأسي، غير مقتنعٍ بما تقوله، أيُّ خيرٍ بعدما تشردنا وخسرتُ مستقبلي، أيُّ خيرٍ ينتظرني وأنا حبيس البيت كالبنات. لا تسمح أمي لي بالخروج كي لا يلحق الأذى بي وتخسرني كما خسرت أهلها في إحدى الغارات.

- ليس لي سواك يا بني، توفي والدك وأنت لم تبصر النور بعد، كنت أملي الوحيد في هذه الحياة، أنيسي في وحدتي، رفضتُ الزواج كي أربيك وأراك شاباً تكبر أمام عيني.

- لكن يا أمي وما فائدتك بهذا الشاب الذي غدا كالبنات عاطلاً عن كل شيء، كمعاقٍ لا يستطيع الحراك ولا حتى التفكير.

- أرجوك لا تتفوه بهذه الترهات يا بني، لا زلت في مقتبل العمر والمستقبل أمامك وهذه الحال لن تدوم، صدقني فدوام الحال من المحال.

كانت كلماتها تنزل على قلبي كبلسم، لكنَّ ناراً فيه لا تهدأ، فالمستقبل لن يكون أفضل حال بمنظور الواقع الذي تعيشه البلاد.

وجاء اليوم الذي تم فيه سوقنا كقطعان الأغنام الهائمة، الهاربة من الذئاب، بلا وجهة. النيران تشتعل في كلّ مكان والصواريخ تسقط على كل البيوت، لم يكن لي سبيلٌ سوى إخراج أمي مع المئات من سكان تلك القرية إلى الحدود التركية التي قضينا فيها أياماً نعاني الجوع والعطش والتشرد، حتى نجحنا أنا وأمي والعشرات من الأهالي في اجتياز الحدود والوصول إلى برّ الأمان.

اتقدت في نفسي مشاعل المغامرة والإقدام على متابعة الهجرة إلى ما وراء البحار، إلى البلاد الأوروبية، رفضت أمي بادئ الأمر إلا أنها استسلمت لرغبتي بعد أن رأتني عازماً على ذلك .

- أمي، نحن الآن خارج الوطن، بعيداً عن أرضنا وبيتنا, هذه البلاد ليست بلادنا ولا حتى تلك البلاد، لسنا مجبرين على الإقامة هنا، وإني أرى أن إكمالنا المسير إلى البلاد الأوروبية هو الأفضل لنا يا أمي، ابنك ليس بقادرٍ على العمل لأني لم أعتد عليه، وهنا من لا يعمل لا يعيش، وكدراسة ..فلقد محوت هذا الحلم من رأسي تماماً.

- لا تفقد الأمل يا بني ، افعل ما تراه مناسباً، سأهاجر معك ولو شئت إلى القمر، يهمني أن تكون مرتاحاً، لكن عدني بأن لا تيأس ولا تتخلى عن بناء مستقبلك.

- آه، عن أيّ مستقبلٍ تتحدثين؟ لا بأس, دعينا لا نفكر سوى برحلتنا التي سنخوضها لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا.

بعد دقائقٍ من شرودي، هبت رياحٌ باردةٌ بعض الشيء وارتفعت الأمواج متعاقبةً ساحبةً نفسها على الرمل حتى ارتطمت بقدميَّ وعادت غائرةً إلى الوراء من حيث أتت.

- بماذا يفكر ولدي العزيز؟ قالتها أمي بصوتٍ دافئ واضعةً يدها على كتفي.

أمسكت بيدِ أمي وقبلتها، كانت يدها باردةٌ بعض الشيء, أردفتُ قائلاً:

- ألا تشعرين بالبرد يا أمي؟

وخلعت جاكيتاً كنت أرتديه ووضعتهُ على كتفيها.

- آه يا ولدي الحنون. لقد جهزت لك مائدة العشاء، وانتظرتك، كنت أراك من النافذة لا زلت واقفاً أمام البحر بلا حراك، فقلت في نفسي لأذهب وأرى ما الذي يُشغل بال ولدي في أجمل يومٍ في حياته.

- لا تقلقي يا أمي ، سرحتُ بمياه هذا البحر، تذكرت بلدي والحال الذي أتى بنا إلى هنا، كم تمنيت أن أحقق نجاحي هذا وأنا على أرض الوطن.

- لا تتذكر. دع عنك كلَّ ما يريبك. انظر الآن إلى واقعنا، إلى حياتنا، أما كنت تقل لي دوماً دعينا نفكر بالحاضر فقط وأنت اليوم قد استلمت شهادة الطب وغدوت طبيباً أفخر به بعدما كنت تطمح لدراسة الهندسة لأنك لم تكن تأمل بأن تدخل كلية الطب في بلدنا.

- الحمد لله يا أمي, كانت تلك الأيام سوداء, خسرنا كلّ شيء في لحظةٍ ما لكني اليوم قد كسبت الكثير، ولا تكتمل فرحتي إلا بحرية وطني وعودتي لأعالج أبناء بلدي.

- بإذن الله يا بني, بإذن الله.

★★★★

وإنه لحبّ الخير لشديد

تتطلب منا الحياة أحياناً أن نسعى جاهدين لأن نمتلك أيادٍ كثيرة لنحرث بها هنا وهناك في صخر الحياة التي باتت صعبة على الكثيرين وبالأخص أولئك الذين عادوا إلى الصفر وغادروا ديارهم لتأمين حياة أفضل لعائلاتهم تماشياً مع البلد الذين هم فيه.

تمكّن علي من إتقان بعض الأعمال اليدوية في البناء من خلال العمل في ورشة لأحد المعلمين في الكار، ثم بدأ العمل كمعلم، وكان يعمل في أكثر من مكان ليؤمن ثمن سيارة طالما حلم أن يقتنيها ويعمل بها ويرتاح من أعمال البناء الشاقة, ولأنها تجني مالاً أكثر بوقت أقصر, فالإنسان بطبعه يحب أن يكسب بأسهل طريقة تتاح له، ولأن ماله حينها لم يكفِ فقد شارك أحد أقربائه في شرائها على أن يعمل بها في المدينة. عمل على السيارة سعيداً بما حققه، وكان يحمد الله على حصيلة ما يجنيه كل يوم ، بالإضافة إلى أن تواجده في البيت لم يعد يقتصر على روتين واحد ، فكان ينتظر جرس هاتفه النقال بعد أن أشاع رقمه بين الناس، لينهض في نشاط وحيوية إلى سيارته التي كان يحرص عليها نظيفة وجميلة كبيته .

- ألو مرحبا

- أهلاً وسهلاً

- أخي أريد الذهاب إلى مدينة مرسين إن لم يكن لديك طلب آخر.

- مرسين ! ولكن أنا أعمل داخل المدينة فقط.

- يا رجل: مشوارك إلى خارج المدينة ستجني منه أضعاف ما تجنيه في عدة أيام داخلها، وتكلفة النقل الآن خارج المدن ارتفعت بسبب القوانين التي فرضت على السفر، ها ماذا قلت؟

- أخشى أن يكون هناك خطر علينا، تعلم أن هناك حواجز لشرطة المرور والأمن..

- يا رجل لا تقلق لست الوحيد الذي سيسلك هذا الطريق, ونقول بأننا أقرباء فلا خوف إن شاء الله .

انطلق علي في رحلته الأولى خارج المدينة، وحينما قبض ثمن توصيله لهم فرح كثيراً لما رآه بين يديه، فقد كان الزبون على حق، وما جناه يومها كان يكلفه أياماً بطولها ولياليها داخل المدينة .

استمر علي بطلباته الخارجية، فلم تعد أحلامه حبيسة الشوارع التي يقطنها وبدأ المال بين يديه يزداد يوماً بعد يوم. كانت عائلته تقلق عليه طوال ساعات غيابه الذي كان يستغرق أحياناً عدة أيام، لأنه يضطر للمبيت في المدينة التي يتوجه إليها ولا يعود وإلا معه

زبائن آخرون فيكسب ذهاباً وإياباً، حتى أنه كان يضطر لأن يبيت في السيارة متدبراً أمره بالقليل من الطعام، فالمهم ألا تعود سيارته فارغة.

بدأت أحلامه تتوسع أكثر فأكثر بحجم المال الذي بات بحوزته, فاشترى سيارة أحدث بالاتفاق مع شريكه بميزات عالية، ليسافر بها إلى مدنٍ أبعد ولتجلب له زبائن ومال أكثر، حتى يستطيع امتلاك ثمن سيارة تخصه وحده ليؤول كل ما يجنيه لجيبه.

(سيارة حديثة للنقل بين المدن، هاتف.. وبأجور منافسة) وضع الإعلان مع صورة السيارة على حسابه الشخصي في الفيس بوك، والنتيجة باهرة. في أحد الأيام وهو في طريق العودة من إحدى المدن تلقى اتصالاً: (يوجد شخصان على جسر أضنا و يريدان الذهاب إلى مدينة أنطاكية، وخذ ما تريد من الأجر). كان كغيره من الاتصالات التي ترده، وصل إلى الجسر ورحّب بالرجلين كما هي عادته فركبا، وسألهما: من أين قدمتما؟

فكان الجواب رطناً بلغة لا يعرفها، فأخذ الخوف يتسرب إلى نفسه شيئاً فشيئاً .

-إنهما أجنبيان ، لم أنقل أجنبياً قبل هذه المرة.

شعر بالقليل من التوتر لكن ما لبث أن تسلل اطمئنان إلى داخله مع سرور بأنهما سيدفعان بالعملة الصعبة وسيكون قد أفلح بهذا اليوم. فجأة ظهر له حاجز تفتيش على بعد عشرات الأمتار، يفتش كل السيارات المتجهة إلى أنطاكية، أشار إليه الشرطي ،توقف على اليمين، ازداد توتره أكثر وشعر بتشنج في داخله.

- أوراقكم الثبوتية؟

- تمام ، تفضل.

- أخذ الشرطي هوية علي و جوازي السفر من الرجلين ونظر فيهما.

- انزلوا من السيارة .

لم يصدق ما قاله الشرطي ولم يشعر إلا وقد تم تقييد أيديهم. وفي لحظات قليلة نقلوا إلى سيارة للشرطة، ثم إلى مهبط طائرة مروحية، وطاروا بهم إلى سجنٍ في استانبول .

كان يعتقد بأن هذا اليوم سيمر كغيره وبأنه سيعود إلى بيته ومعه مبلغاً محترماً من زبائنه الأجانب، لكن حدث مالم تحسب عقباه. في التحقيق علم علي بأن الرجلين قاتلان.

- قاتلان يا للمصيبة! كان يجب أن أكون أكثر حذراً، يبدو أن الكسب السريع للمال أغراني، هل يقتنع القاضي بأني بريء ولا علاقة لي بهما؟ أرجو أن يتمكن المحامي من إثبات ذلك. إني بريء, فليذهب المال إلى الجحيم لقد أخطأت بحق نفسي حينما طمعت بالمزيد من المال وخاطرت في العمل خارج المدينة، أريد أن أخرج وأعود إلى زوجتي وأولادي.. لقد اشتقت إليهم.. لا أدري! قد أكون أخطأت في مكان ما وهذه عقوبتي .

كان يحدث نفسه ويصلي ويقرأ هذه الآية : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ *) خسر أغلب المال الذي جناه وباع شريكه السيارة بعد أن استعادها، ولا يزال ينتظر الفرج منذ عامين.

★★★★

التاجر والحكيم

في إحدى السنوات جارَ الزمانُ على أهالي قرية عندما حلّ القحطُ بها، الجوعُ كانَ الحاضر في بطونِ الفقراءِ ونداءاتِ الاستغاثةِ لا تجدي نفعاً، فمن يملكُ بضعَ دراهمَ كانَ يُخفيها عن العيونِ, ويُمسكُ يدهُ عن مساعدةِ غيرهِ خشيةَ الفقر، فالأسواقُ كسدتْ وصلواتُ الاستسقاءِ تضجُّ بها المساجدُ, علّ السماءُ تجودُ لهم بأمرِ الله فيغاثوا ويستبشروا ويزرعوا. ولكنْ لا غيثَ ولا أمل حتى عادَ إلى القريةِ رجلٌ غنيّ كانَ في تجارةٍ لهُ في بلاد الشامِ فوجدَ الحالَ غيرَ الحالِ الذي تركَ عليهِ القرية فوجدها فرصةً للظهورِ ولنيلِ مكانةٍ مرموقةٍ بينَ الجميعِ إذ هو جادَ بمالهِ عليهم وساعدهم فقال لنفسهِ:

- ليتَ شعري لن أبيتنَّ ليلةً إلا والقرية كلّها تحت أمري، فلديّ من المالِ الكثيرِ وجئتُ بحمولةٍ من أكياسِ القمحِ لو وزعتها عليهم ستكفيهم وتفيض، لكن قبلَ ذلك لنْ أوزعها قبلَ أنْ أكسبَ لنفسي سمعةً يتحدث بها كل أهل المنطقة بمن فيهم سكان القرى المجاورة.

في صباحِ اليومِ التالي خرج التاجر في جولةٍ في القريةِ، فتقدّمَ نحوهُ بضعُ رجالٍ يسلمونَ عليهِ فنحّاهُ جانباً أحدهم وهمسَ لهُ بأنّهُ يريدُ

بضعَ دراهمَ ديناً يفكُّ بها ضائقتهُ، فضحكَ التاجرُ وقالَ بصوتٍ مرتفع:

- أيُّ دينٍ يا رجل، خذْ هذهِ عشرُ دراهمَ لكَ ولا أريدُ أنْ تُعيدها لي.

شعرَ الرجلُ بالإحراجِ أمامَ باقي الرّجالِ وهو يتناولُ الدّراهمَ على استحياءٍ منه وممن حوله.

تابع التاجرُ مسيرهُ وهو يختالُ فخوراً بنفسهِ معتزاً بإقبالِ الناسِ عليهِ وكانَ كلّما طلبَ منهُ أحدهم دراهماً كان يعطيهِ وهو يحدثه بصوتٍ عالٍ ليسمعَ أهالي القريةِ.

- خذْ يا أبا فلان هذه مني لكَ حلالاً لا أريدُ منك سداداً.

ظناً منهُ بأنهُ يرسمُ لنفسهِ صورةً جميلةً أمامَ سكانِ القريةِ ويتباهى بأنّهُ يقومُ بعملِ الخير.

ولم يتوقفْ حبّه في الظهورِ في قريتهِ بل طمعَ أن يسمع بهِ أهالي القرى المجاورة وأن ينتشر صيتهُ بأنه كريمٌ معطاءٌ يُعطي دون مقابل، فأمر الغلام الذي يعملُ عندهُ بأنْ يذهبَ إلى القرى المجاورة ويحدّث الناسَ عنهُ وعن كرمهِ.

ذهبَ الغلام بناءً على طلبِ التاجر إلى إحدى القرى وبدأ يحدّثُ هذا وذاكَ عن معلمهِ وعن كرمهِ وعن نيته في التبرعِ بأكياس القمحِ التي جاءَ بها من بلادِ الشام، حتى سمعَ بهِ أحدُ الحكماءِ فقررَ أنْ يتقصى الخبرَ، فقصدَ القريةَ وسأل عن التاجرِ، فكانَ ما قيلَ عنهُ صحيحٌ بأنّهُ جوادٌ كريمٌ لكنَّ بعضَ الرجالِ قد ذاقوا بهِ ذرعاً بسبب تصرفاتهِ وإعلانهِ عن مساعدتهم أمامَ القريةِ بأكملها وهذا ما سبب الإحراج لهم.

ذهبَ الحكيمُ إلى بيتِ التّاجرِ فاستقبلهُ بحفاوةٍ وضيافةٍ لا مثيلَ لها وسألهُ عمّا بإمكانهِ القيامَ بهِ لمساعدةِ الفقراءِ وما الذي يستطيعُ أنْ يجودَ بهِ أيضاً.

فقال لهُ التّاجر: لديّ حمولةٌ من أكياس القمحِ تكفي كلّ أهالي القريةِ، لكنّي لم أقمْ بتوزيعها بعدْ.

فقالَ لهُ الحكيم: ما رأيكَ أن تجمعَ القمحَ كلُّهُ في مكانٍ واحدٍ والمحتاجُ يأتي ويأخذ حاجتهُ منهُ.

اعترضَ التّاجرُ وقال: لكن أنا كنتُ سأوزعها بنفسي عليهم.

فكرَ الحكيمُ لبرهةٍ وأرادَ أن يلقن التاجرَ درساً بسبب تباهيه بالصدقة، فقال لهُ: لكَ ما شئت.

ردّ عليهِ التاجرُ فَرِحاً: سأضع القمحَ كلّهُ في مستودعِ القريةِ وسأبدأ بالتوزيعِ غداً صباحاً.

وافقهُ الحكيمُ وهو يسرُّ في نفسهِ خطةً، بينما التاجر سعيدٌ بما سيقومُ بهِ مزهوٌّ بنفسهِ بأنّ نجمهُ سيلمع وسيتحدثُ عنهُ القاصي والداني وسيخلّدُ اسمهُ التاريخ.

جُمعت أكياسُ القمحِ في مستودعِ القريةِ وانتظرَ التاجر الصباحَ بحماسٍ وفي تلكَ الأثناءِ قامَ الحكيمُ بالاتفاق مع بعضِ الرّجالِ بتوزيعِ القمحِ على كلّ البيوتِ في القريةِ دون أن يكشفوا عن أنفسهم ولا عن هويةِ المتصدق.

استيقظ السكانُ فرحينَ بما آتاهمُ اللهُ، واستيقظَ التاجرُ بحماسٍ ليومهِ العظيم، ارتدى أجملَ الملابسَ وخرجَ بصحبةِ الغلامِ إلى المستودعِ فوجدَ أبوابهُ مفتوحةً وفارغاً والحكيمُ يقفُ عندهُ، فأصيبَ التاجرُ بالهلعِ وسألَ الحكيمَ عن القمحِ وما حلَّ بهِ وأينَ اختفى.

كان الحكيم قد تعمد ترك حباتٍ من القمح منثورةٍ على الأرض حيثُ بدأ النملُ بسحبها إلى مساكنها.

فقال له الحكيم: استيقظتُ باكراً وجئتُ إلى هنا لانتظرك حتى نقوم بتوزيعِ القمحِ لكني وجدتّهُ على هذهِ الحال.

- وما العمل؟ ومن قامَ بذلك؟ وهل تمّت سرقتي، هل هذا ردُّ الجميلِ الذي قمتُ بهِ مع أهلِ القريةِ بأن سرقوني؟

فقاطعهُ الحكيمُ قائلاً:

- ما بك، كلُّ سكانِ القريةِ كانوا في سباتهم ولا علمَ لهم بالقمحِ، لكن أعتقد بأنّكَ قد أذعتَ خبرهُ في القرى المجاورة, فعلم بهِ قطاعُ الطرقِ واللصوصِ وقاموا بسرقته.

لطم التاجر على وجهه ورأسهِ، وجثا على الأرض خائباً.

فقال لهُ الحكيم: هذا ما صنعت يداك وهذه صدقتك التي كنت تتباهى بها أمام الملأ، وأردتَ أن يُذاعَ خبركَ في كلِّ القرى فيذهبُ أجرُ عملكَ هباءً منثوراً، ومهما بلغَ حجمُ عطائكَ فإنّهُ سيذهبُ أدراجَ الرياحِ بلا أجرٍ وأنت بالمقابل كنتَ تبحثُ عن السمعةِ والصيت ليس إلا.

علَّ هذهِ النملات تسمعُ حديثنا وتعلم بأنك صاحبُ القمحِ فترتفع مكانتك عندها.

طأطأ التاجر رأسهُ خجلاً وهو لا يعلم ما سيقوله.

تابع الحكيم كلامهُ : انظر إلى النملِ فهو لا يعلم بأنّك صاحبُ القمح، لكنّه يشكرُ اللهَ فقط واللهُ جلَّ جلالهُ بدورهِ سيجازيك بأعظم

أجر سواءً في الدنيا أو الآخرة، وأنت كنت تحرمُ نفسكَ من الأجرِ بقول الناس عنك بأنك كريمٌ، فتأخذ جزاءك في الدنيا دون الآخرة.

ثم أخبره بأنه قام بتوزيع القمح على السكانِ ليلاً دون إخبارهم بصاحبه وبذلك تعلّم التاجر درساً لن ينساه.

★★★★

رسمت حلمي

النجاح مكتوبٌ بالهمة، معقودٌ بالصبر، مرهونٌ بالجدَّ، مربوطٌ بالفشل، نعم بالفشل وكيف ذلك؟

- لا أستطيع أن أدرس.

هذا ما قلته لأمي وأغلقت الكتاب وبدأت في البكاء، دخل أبي إلى الغرفة على صوتي مقطب الحاجبين، يلوح بيده مهدداً.

- هذه السنة ستنجحين، وإن لم تفعلي سأزوجكِ أو أرمي بكِ في إحدى مشاغل الخياطة.

كنت أدرس لامتحان الثانوية العامة للسنة الثالثة على التوالي، قدراتي لم تكن تسمح لي أن أحفظ و أنجح، أدرس كثيراً لكن دون فائدة، أبي يريد أن أكمل دراستي كنظير أبناء زملائه في العمل.

- رزقني الله بالبنات، قلت: لا بأس، لكن فاشلات لا فائدة منهن. ضرب بيده الحائط وخرج.

بدأت الامتحانات وكنت أعود إلى البيت محبطة، أدخل غرفتي وأبدأ بتفريغ حزني على الورق، برسومات ملونة وأخرى بخطوطٍ لا شكل لها. كنت أُخبئ ما أرسم كي لا يشاهدها أبي، فيغضب مني .

في يوم النتائج، دخلت إلى غرفتي وأبي في الخارج يرعد ويزبد وأمي تحاول تهدئته بلا جدوى، لقد رسبت للمرة الثالثة، ولا أمل أن أعيد الثانوية، فقد تم فصلي.

- فلتهيئ نفسها لتذهب غداً إلى مشغل الخياطة. قال والدي.

في الصباح قادني إلى المشغل وقبل أن يغادر قال لي:

- ركزي جيداً، وكوني نبيهة، تعلمي بأسرع وقت، لا أريد فشلاً هذه المرة، فليكن منك فائدة.

دخلت بخطواتٍ مرتبكة وأنا أنظر حولي، استقبلتني إحداهن وأخبرتني عما سأفعل. انضممت لمجموعة فتياتٍ قدمن حديثاً ليتعلمن ويكتسبن مهنة تفيدهنّ ويساعدنّ بها أهاليهنّ أو أزواجهنّ.

بدأت أتدرب على قص القماش، أُخطئ في كل مرة فتوبخني المعلمة، لطالما كانت تغضب وتشعر بالإحباط عندما ترى ما أقوم به، أخذتني ذات مرة إلى آلة الخياطة كي أتدرب عليها، إلا أن الخيطان كانت تتشابك بين يديّ.

- لا أستطيع. قلتها وأنا أجهش في البكاء، كان خوفي من ردة فعل والدي تفوق حزني على فشلي وغضب المعلمة مني.

- انظري يا ابنتي، لا فائدة من تعليمك، لا تتعبي نفسك وتتعبينا معك، يبدو أنك لن تجيدي هذه المهنة، اذهبي إلى منزلك، لا نريدك هنا بعد اليوم.

كان استقبال والدي لي كإعصار هائج ، اختبأت خلف أمي وأنا أرتجف كعصفورٍ جريح، كان ينتعني بالفاشلة، وكانت هذه الكلمة تدخل إلى قلبي لتحطمه وتحيله إلى أشلاء صغيرة.

- فلتدخل إلى غرفتها ولا تخرج، سأزوجها لأول رجل يطلب يدها .

حملت أشلائي وخاطري المحطم إلي غرفتي وبقيت أمضي وقتي فيها أرسم حزني على الورق، أرسم أحلامي الفاشلة أيضاً، لم يكن باستطاعتي أن أرى نور الأمل يلوح في الأفق مرة أخرى، أنتظر مصيري لأرتبط برجلٍ لربما سيرميني إن فشلت أيضاً في تدبير المنزل.

في يوم من الأيام وموزع الجرائد يقوم بجولته الصباحية على البيوت، يضع على الأبواب الجرائد ويمضي، حملت أمي الجريدة ووضعتها على الطاولة وتابعت عملها في المطبخ وأنا كنت أساعدها في التنظيف.

بدأت بمسح الأثاث، النوافذ، الخزن، الطاولة، مسكت الجريدة وبدأت أقلب فيها وأقرأ، حتى وقع نظري على زاوية الإعلانات، مشغل الخياطة في المدينة يحتاج إلى مصمم رسومات لملابس الأطفال، قرأت العنوان هو ذاته المشغل الذي لفظني بسبب فشلي في تعلم الخياطة، انقبض قلبي، خشيت أن أغامر أيضاً في هذا الأمر، أستطيع أن أرسم، لكني لا أثق بقدرتي على أن أكون مصممة، تركت الجريدة جانباً وتابعت عملي.

بقيت أفكر طوال الليل في هذا الإعلان، كان لابد لي أن أفعل شيئاً لأثبت لنفسي أولاً ثم لوالدي أنني أستطيع النجاح في الحياة.

في الصباح هممت نفسي وأخبرت والدتي بأنني سأذهب إلى ورشة الخياطة، كللتني بدعواتها وخرجت. في المشغل كان طابور المتقدمين يفوق المئة، أوجست خيفةً، لكني قلت في نفسي لن أتراجع هذه المرة.

انتظرت قرابة الساعتين حتى جاء دوري، قدمت لهم رسوماتي، وملأت طلب تقديم مرفوق بالإعلان، أخبروني بأن أنتظر اتصالاً هاتفياً منهم إن تم قبولي.

مرت الأيام كمرور سلحفاة كُسرت ساقها، وأنا أنتظر خبراً يفرح قلبي.

في المساء رنّ الهاتف ، ضربات قلبي تجاوزت المئة ، تناولت أختي السماعة وقالت:

- ألو

صمتت وهي تستمع للمتصل وعيناها تتلألأ وهي تنظر إليّ، ابتسامة بدأت بالاتساع ترتسم على محياها ثم قال بصوت ملؤه الفرح:

- أختي ، لقد تم قبولك في الورشة لتصميم الرسومات لملابس الأطفال.

كان ذلك بداية النجاح، بدأت العمل في المشغل كمصممة، حتى أنه قد تم طلب تصاميمي لمعامل أكبر على نطاق البلد، بدأت أحقق أرباحاً ونجاحاً ماكنت أحلم به يوماً، غدا أبي سعيداً مني وراضياً، لم يتوقف الأمر على ذلك بل بدأت بالاشتراك في معارض الرسم التي تقام في المدينة، وكان اسمي يلمع على شاشات الإعلان، غدوت أرسم حلمي في حين كنت سابقاً أرسم فشلي، الذي لم يكن فشلاً بل بداية نجاح.

★★★★

إليكِ أكتب

حبيبتي شيماء..

إلى من تجعلني أتمسك بالحياة لأجل عينيها، إلى من تجعل قلبي ينبض بالأمل ويرسل إلى كل خلايا جسدي بلسماً يداوي جروحي، جروحي التي اضمدها بوشاحك الذي أرسلته لي مع رسالتك الأخيرة, كي تطيب بك وأتعافى لأجلك. أنا هنا على جبهة المعارك لا أدافع فقط عن الوطن، أقاتل لأجل عينيك، لأجل حلمنا الذي رسمناه معاً، لبيتنا الذي سنسكنه سوياً..لأطفالنا الذين لم ننجب بعد.

لو تعلمين يا شقيقة الروح بأني هنا لا أعد الأيام، ولا أشعر بالزمن, فكل ما حولي رماداً ممزوجاً بلون الدم, كل يوم ندفن أحد الأصدقاء قد أردته غارات العدو شهيداً. لا نعد الأيام ولا عدد الشهداء بقدر ما تهمنا مساحة الأراضي التي نحررها وندخلها رافعين راية النصر ونبتهل رغم جراحنا ودموعنا، نلعق الدم من على شفاهنا التي باتت كأرض انقطع عنها المطر فتشققت.

غاليتي: أكتب إليكِ وأنا أحيي روحي بذكرياتي معك، بذلك اليوم الذي قابلتك فيه عند النهر، ترمين الحصى واحدةً تلو الأخرى وتصغين لصوت إيقاعها.

و قد جمعتِ زهور الأقحوان في سلة صغيرة، كنت أراقبك من خلف شجرة السنديان الشامخة، حتى قررت أن أتقدم نحوك وأكلمك، لكني خشيت أن أقطع شرودك فتغضبين. كنت مفتوناً بسحر قامتك، بشعرك الكستنائي، بلون وجنتيك كلون الغروب. تقدمت نحوك بخطوات خجولة، لكن صوت الحصى وتكسر الأعواد تحت حذائي فضح أمري. توقفتِ عن رمي الحصى والتفتي نحوي، رمقتني عيونك الواسعة بنظرةٍ اخترقت قلبي، خرج من بين شفتيك صوتٌ وكأنه معزوفةٌ موسيقيةٌ طربَ قلبي لسماعها.

- من أنت ؟ ومنذ متى وأنت تراقبني؟
- أنا هنا منذ أن التقطت أصابعك أول حصاة لتودي بها إلى قاع النهر منتحرة. ومنذ أول أقحوانة نالها شرف ملامسة يديك.
- أأنت شاعر؟
- لا أنا عاشق..

ازداد لون وجنتيكِ احمراراً كلون الجلنار, وارتسمت ابتسامة على جمر شفتيك حتى كشفت عن لؤلؤٍ ثغرك. أتذكرين؟ صرنا كل يوم نلتقي عند النهر، نجمع أزهار الأقحوان ونرمي الحصى، ونرسم أحلامنا معاً. حفرنا اسمينا على جذع السنديانة، ليبقى حبنا خالداً معمراً كتلك الشجرة. أتذكرين؟ عندما خانتنا الأيام، بل خاننا

الوطن، وهل يخون الوطن أبناءه ؟ تتساءلين ربما..نعم، يخون عندما لا يحفظ لنا هويتنا، عندما يلفظنا خارج حدوده في البراري والبحار فنسقط قتلى وغرقى، أعداداً, لا أسماء, لا هوية. أما أنا يا مهجة الروح، لازلت متمسكاً بتراب الوطن لأجلك، لأجل أن أعود حاملاً إليك خاتماً أضعه في يدك، وأتوجك ملكة في بيتي.

أكتب إليك ولا أعلم هل ستصلك رسالتي هذه أم أنها كالرسائل العشر السابقة التي لم يصلني منك ردٌ عليها، لا أعلم هل ضلت الطريق؟ أم مات ساعي البريد وهو في طريقه إليكِ, فالموت قد استوطن في وطننا، وقد أعجبته الإقامة وطال به المكوث، استهوته أرواحنا فبات يختطفها بنهم، وكأنه عشقنا وعقد قرانه علينا. هل كان الموت أسرع مني إليك؟ لا, لا أحبذ أن تراودني هذه الفكرة, لو استطعت أن أمزقها بأسناني لفعلت. أنت روحي وبكِ أحيا، لا أظن إلا أنك بخير، فظن العاشقين لا يخيب.

أتذكرين؟ عندما قلت لي أنك ستنجبين لي عشرة أبناء، ونبني بيتاً في بستان جدي، ونزرع دوار الشمس. كم تحبين دوار الشمس يا شقية؟ كنت أسألك فتجاوبين: كي نحمصه سوياً في ليال الشتاء مع حبات الكستناء. لدفء بيتي ذلك أشتاق يا شيماء ..لرائحة الخبز والقهوة التي وعدتني أن تصنعيها بيديك كل يوم صباحاً، ونرتشفها

مع صوت فيروز وزقزقة العصافير. تؤلمني جراحي يا شيماء، ليس ضعفاً ، لكن لأنها تمنعني أن أشارك رفاقي في قتالهم.

المعركة باتت حاسمة والنصر بات قاب قوسين أو أدنى، على الرغم من أننا لم نحرر سوى جزء من الوطن، لكن هذا ما نسعى للحفاظ عليه ونموت دونه، كي لا تغتصب جميع المدن والقرى، كي نبني وطناً مصغراً يضم النازحين، لأجل أن لا يغادروا البلاد، فنحقق بذلك مساعي العدو فتخلو لهم الساحة، لن نجعلهم يهنؤون بما فعلت أيديهم، سنكون كابوساً فوق صدورهم يؤرق نومهم ويزعزع كيانهم.

أستطيع أن أمشي، أن أقف، وأن أتجول في المعسكر وأحمل البندقية. جراحي ليست بذاك السوء، لكن لا أعلم لماذا يمنعني القائد من الخروج كل مرة أتوسل إليه أن أحمل البندقية وأخرج مع رفاقي. يقول لي لا زالت جراحك عميقة. وأنا أرى عكس ذلك، أرى وشاحك حول زندي، أشتم رائحتك فيه، أضمه إلى يساري، فيهدأ قلبي المضطرب بك. لا أعلم لماذا يجبرني على تناول أقراص الدواء، وأنا لا أشعر بأي ألم. يضعها في فمي رغماً عني، ويصب الماء فيه، لا أشعر بعدها بشيء سوى تخدر أطرافي، وانطفاء عقلي، وأنام بعدها طويلاً.

نسيت أن أخبرك بأني أسمع صوتك ينادي كل ليلة، فأخرج خلسة للبحث عنك، أنادي عليكِ بملء صوتي فلا تسمعين. كيف لفتاة رقيقة مثلك أن تقطع كل الجبال وحواجز الجيش وتصل إلى المعسكر؟ أنت ملاك، والملاك لا يرى أحياناً، لهذا أنتِ تأتين إليّ دون أن تمنعك هذه الحرب اللعينة, أسمعكِ ولا أراكِ. ألهذا لا تصلك رسائلي؟ لن أتوقف عن الكتابة إليك، لن أصدق ما يروه عنك بأنك غادرت الوطن، وغدرت بي كالوطن، فلو فعلت، لغادرتني روحي. لن أصدق ما يقوله صديقي الذي يوبخني كلما رآني أكتب إليكِ، لا أفهم ما يتفوه به من كلمات لا يستوعبها عقلي لربما أراد أن يقتلني بما يقوله. لا لم تتزوجي غيري. وأنتِ التي وعدتني أن تكوني أماً لأطفالي.

لا أطيق ذلك الذي يأتي إليّ كلما هامَ بي الشوق إليكِ، وأبدأ بالصراخ باسمك، فيحقنني بإبرة يخرسني بها ويشل لساني.لا تصدقيهم يا شيماء بأني فقدت عقلي، لا تصدقيهم بأنني جننت، فأنا لا أصدق ذاك الذي يقول خان الوطن فلا عجب أن تخون الحبيبة.

أنا مجنون بكِ ولن أكف عن الكتابة إليكِ.

أنا معك

تشير ساعة الحائط إلى الثالثة صباحاً, وأنا ما زلت أحدّق في ذلك السقف فوق رأسي، أراه بعيداً تارةً وقريباً يكاد يطبق على صدري تارةً أخرى. نشبت عداوةٌ بيني وبين الكرى منذ زمن وكأنه يأبى أن يتصالح معي إلا -بوسيط بيننا- أتناوله ليدخل إلى جوفي على هيئة أقراص دواء، والتي عزمت على ألا أتناولها الليلة، محاولةً أن أستجلب النوم بدون واسطة لكني لم أجني سوى الأرق.

تسارعت ضربات قلبي، آلام سرت في سائر جسدي، تنميل في أطرافي، بدأت أتعرق على الرغم من برودة الجو في الخارج، ما هذه الأعراض؟ أنا متيقنة بأني مصابة بمرض قاتل هذا ليس وهماً

أغمضت عينيَّ جاهدةً لأن أطرد تلك الوساوس، أن أسبح وأستغفر، لكن لا شيء تغير. صوت المؤذن بدأ يكسر صمت الأحياء، أضواءٌ خافتة بدأت تلوح في النوافذ لتنجلي عتمة الليل ووحشته شيئاً فشيئاً. نهضت بجسدي المتهالك توضأت ومددت سجادة الصلاة على الأرض وانكببت عليها في بكاء مرير، صليت الفجر وقرأت ما تيسر لي من القرآن بعيون ملتهبة، ثم عدت إلى سريري أنتظر خيوط الشمس واستيقاظ كلِّ من في الدار.

التاسعة صباحاً, هذا ما أعلنت عنه عقارب الساعة التي كنت أراقب تحركاتها، رنَّ جرس الباب بوتيرة مزعجة وكأن الزائر لا يطيق الانتظار, فتحت أمي الباب، فكانت جارتنا تريد أن تشاركها قهوتها الصباحية وتتبادل معها الأحاديث وتنقل لها نشرة أخبار الحي. أغبط جارتنا على ضحكاتها التي تخرج من أعماقها وعلى وجهها البشوش الممتلئ وعينيها اللامعتين، وكأن المرض لم يمس جسدها يوماً على الرغم من معاناتها من ارتفاعٍ في سكر الدم وضغطها الذي يتأرجح بين صعودٍ وهبوط، لكنها تعيش حياتها وتغرف من بحر السعادة ما استطاعت .

أحضرتُ القهوة وجلست قبالتهما أُصغي إلى أحاديث ملامحهما التي تنطق قبل أن تخرج الكلمات من فِيهما، دون أن أفهم ما يدخل إلى مسمعي، حتى وكزتني جارتنا على ركبتي قائلةً:" إن شاء الله سنفرح بكِ قريباً"

هزت كلماتها أعماقي وانقبض قلبي وبدأت أوصالي ترتجف. يفرحون بي؟ وأنا التي لا أستطيع أن أفرح بنفسي، من سيتقبلني وأنا لا أنام إلا بتناول الدواء، كيف لأحدهم أن يُحبني وأنا نفسي لا تُحبني، كيف لي أن أعيش مع عائلة غريبة وأنا أشعر بالغربة بين أهلي؟

قبل عدة أشهر كنت فتاة مرحة لا يعكر صفوي شيء إلى أن غيَّب الموت أغلى صديقة لي بعد صراعها مع المرض، ورأيتها في حلمي تمدُّ يديها نحوي وكأنها تنتظرني لأن ألحق بها. بعدها انقلبت حياتي رأساً على عقب، بتُّ أخشى من أيِّ ألمٍ يحلُّ بي وأهاب أيِّ سعادة لربما أشعر بها حتى بدأت أفقد القدرة على النوم دون دواء، وبتُّ أشعر بوحدة قاتلة وكأني أعيش لوحدي في هذا العالم.

في زياراتي المتكررة للطبيب يقول جازماً أني لا أعاني من أي مرض, وعليَّ أن أساعد نفسي على الخروج من هذه القوقعة التي أدخلت نفسي فيها, وتقبُّل حالتي بتناول بعض الأدوية التي تساعدني على الاسترخاء والنوم, وأنا أشعر أني أعاني من آلام جسيمة, وأني مصابة بمرض ما, ولا أستطيع البوح بما يدور داخلي لأحد، وفي ذات الوقت أحاول أن أستحضر النعاس دون دواء فأقع في صراع داخلي يمزق أفكاري حتى الصباح. وجميع من حولي يجزم بأني حزينة على صديقتي فقط, ولا أعاني من أي مشكلة أخرى. ابتسامة أمي ونظراتها إليّ وغمزات جارتنا لها وكأنهما ينتظران حدثاً مهماً.

- سيأتينا ضيوفٌ الليلة يا ابنتي ، جهزي نفسك.

قفز قلبي وشعرت بأنه ارتطم بعظام صدري فارتدَّ عنها هلعاً.

- ضيوف؟ قلتها في نفسي.

تابعت أمي حديثها مع جارتنا ثم نظرت إليّ وقالت:

- أنا متأكدة بأنك ستفرحين حينما تعلمين من الذي سيزورنا وسيطلب يدك من والدك.

- أفرح؟ أيُّ فرح تتحدث عنه أمي وأنا كلما زارني الفرح ينقبض قلبي خشية وقوع كارثة ما؟

- ومن الزائر؟ نطق لساني أخيراً محاولةً استجماع قوتي.

- أهل صديقتك عبير رحمها الله، سيتقدمون لخطبتك لابنهم حسام.

- حسام! الشاب الذي طالما أحببته وحلمت بأن يكون من نصيبي، كم رسمنا الأحلام أنا وعبير, ولوناها بكل ألوان الفرح, وكم خططنا لليوم الذي ستأتي فيه برفقة عائلتها لخطبتي من أخيها، ها قد جاء هذا اليوم لكنها ليست برفقتهم. كيف لي أن أتزوج من أخيها وأسكن في بيتهم الذي يفتقد وجودها؟ كيف لي أن أرتبط بأحد وأنا أشعر بأن الموت قريب مني, وبأني أكتم ألماً لا يعلم به إلا الله؟ كيف لحسام أن يتقبلني وأنا بَهُت لوني ونَحُلَ جسمي وغارت عيناي ولا أستطيع النوم بدون أدوية؟ وكيف لي أن أتقاسم معه حياة

زوجية وأنا لا أستطيع أن أمنح نفسي حياةً طبيعية دون قلق؟ لن يحدث هذا كلُّه ولن أرتبط به، لا أريده أن يفجع بموتي بعد سنة أو سنتين, يكفيه فقدان أخته، أنا فتاة لن تعيش طويلاً ولن أظلم أحداً معي.

- لا أريد الزواج, صرخت في أعماقي وهرعت مسرعة إلى غرفتي وأوصدت الباب خلفي وتركت أمي وجارتنا يتهامسان ويضحكان ويقولان فيما بينهما " لقد خجلت."

لم يكن خجلاً بقدر ما كان رفضًا، لكني لم أستطع أن أصرح بما يدور في ذهني وما يسكن داخلي، ولم أجد نفسي إلا وجهاً لوجه أمام حسام حينما قَدِم هو وأمه، مشاعرٌ غريبة سكنت فؤادي حينما التقت أعيننا، سرت في عروقي سكينة حرمت منها منذ أن فقدت صديقتي، وكأني أرى في عينيه عبير تضحك وتقول لي : أنا معك

★★★★

قيد الحب

الثالثة بعد منتصف الليل، وأنا لا زلت منكباً على أوراقي ألثم سطورها بقلمي مانحاً إياها بعضاً من نزيف ألمي، ثم أمزق جلَّ الأوراق التي أنهكتها بكلماتي لتهوي إلى مثواها في القمامة.

اعتراني يأسٌ شلَّ أركاني منذ أشهر، فقدتُ القدرة على نسج الكلمات، وعجزت عن البوح لأحد، وتوقفت عن الانطلاق في قطار الحياة بعدما تعطلت عجلاته في محطة الخذلان والخيبة. بتُّ أسير الأحزان وحبيس حبٍّ انهار بعد أن بلغ ذروته، محطماً كل آمالي وكأن أساسه كان هشاً فلم يقاوم أكثر.

سرتُ في أروقة العلاقات أبحث عن امرأةٍ تُنسيني همِّي، وتنتشلني من هوّة الفراغ التي خلّفته حبيبتي بعد هجرها لي وزواجها، لكني كنتُ أزداد ضيقاً ونفوراً من كلِّ النساء حتى آل إليّ الحال لأعتكف بين هذه الجدران.

جاء الصباح بشمسه الساخرة من ظلامي، ليُقرع جرس الباب بوتيرةٍ مزعجة وكأن الزائر لا يطيق الانتظار.

- من ذا الذي سيُقلقُ وحدتي وهدوئي في هذه الساعة؟ همستُ لنفسي.

- افتح يا أحمد, قال الطارق.

فتحتُ الباب ليظهر صديقي حسام بوجهه الضحوك وما إن رآني حتى عانقني بحرارة وولج إلى الداخل دون أن أتفوه بأي كلمة.

- لدي لك خبرٌ جميل. قالها حسام وجلس على الأريكة منتظراً مني أن أقابله، مشيراً بيده لي كي أجلس وأنصت له.

- هات ما عندك. قلتُها وما زلتُ أقف وسط الغرفة دون حِراك.

- فهمت، أنت لم تحتسِ قهوتك بعد. قالها ونهض متوجهاً إلى المطبخ.

لحقتُ به ووقفت عند الباب ساناً جسدي على الحائط، أرقبُه وهو يقومُ بتحضير القهوة وحركاته التي تنم عن حيوية وسعادة. أغبط تلك الروح المرحة التي تسكن داخله وتلك الابتسامة التي لا تفارق محيّاه، واندفاعه في الحياة لا يقيده أيُّ شيء.

ارتشفنا قهوتنا في المطبخ وهو يسألني عن حالي وعن آخر كتاباتي التي ركنتُ آخرها في دار نشرٍ بانتظار إصدارها، لكني نسيت أمرها بتاتاً، حتى أني لم أعد أرغب بها.

- مبارك لك قبول عملك. قالها حسام وهو يرسم ابتسامةً عريضةً على وجهه، تكشّفت عنها أسنانه.

تابعت ارتشاف قهوتي وكأني لم أسمع خبراً كنتُ بانتظار سماعه منذ زمن، لكنّه اليوم قد وقع في نفسي دون أيّ صدىً يُذكر.

- ما بك يا أحمد؟ وكأني أهذي بكلامٍ للجدران، ها قد اطلّت بوادر الأمل في تحقيق حلمك وسيرى مؤلفك النور، وسيخرج للملأ.
- جميل، قلت مبتسماً ولم أزد، ليته يعلم أنه لم يعد يهمني أن ترى كلماتي النور, وأنَّ نفسي باتت سجينة ما كتبت، ذاك الحب الذي سعيتُ لأن أخلده بين دفتي كتاب، بات خرافياً تحكيه القصص فقط.

أنهى قهوته على عجل وهمَّ واقفاً يستأذن في الخروج إلى عمله، طالباً مني أن أهاتفه مساءً، وعدته بما طلب وغادر وأنا عدت إلى سريري أحاول أن ألملم بعثرة مشاعري التي قيدت حياتي ومنعتني من أنعم بالعيش كغيري. فتحت خزانتي وانتقيت منها ثياباً ارتديتها وعزمت على الخروج من بين هذه الجدران التي بتُّ أشعر بأنها

تطبق على أنفاسي. سرت في الشارع بخطواتِ سجين لم يرَ أشعة الشمس منذ زمن، أنظر إلى المارة وهم يعبرون الشوارع بخطواتهم، منهم من تعجَّل وكأنه تأخر عن موعده ومنهم من آثر السير على مهل لينعم بنسمات الربيع ويعبّ من الهواء ملئ صدره.

وأنا كنت أسير على غير هدف ولا وجهة محددة لي، أرغب في الهروب من كلّ ما حلَّ بي من حزن وألم، خرجت إلى الشوارع كي أنسى لكني نسيت أن أنسى، كل شيء يذكرني بها، كلُّ الأماكن دونها خالية. قابلت في طريقي الكثير من الأصدقاء الذين افتقدوا لقلة تواجدي بينهم، تعذرت بانشغالي في الكتابة وبوعكة صحيةٍ قد لازمتني مؤخراً ومنعتني عن مغادرة منزلي، وهم بدورهم صدقوا حجّتي، لأنهم لمحوا في وجهي الشحوب وشاهدوا في جسدي النحول.

قادني أحد الأصدقاء إلى بيته لتناول طعام الغداء، لبيّت دعوته على مضض ولم أصدق كيف استطعت التهرب منه كي لا أقضي وقتاً أكثر. بدأت أشعر بالضيق بدل أن أُسلي نفسي بعيداً عن التكفير بها فلقد كانت حاضرةً في ذهني في كل لحظة. جررت قدميّ إلى البيت بعد انتهاء النهار وأنا أجرُّ هزائمي خلفي, بعدما فشلت في التخلص مما قد سكن داخلي وأقلق راحتي وسكوني.

ولجتُ إلى غرفتي وتوجهت إلى طاولتي وأوراقي وبدأت أخطُّ عليها رسالة لا أعتقد بأني سأكملها لأني سئمت حياتي، يُقال بأن صديق الإنسان نفسه وأنا نفسي باتت ألدَّ أعدائي، لم يعد شيء يُسعدني في هذه الدنيا, ولم أعد أطيق هذا الضيق الذي أشعر به. تركت الرسالة دون توقيع وتوجهت إلى الكرسي في منتصف الغرفة وعلقت رقبتي على حبلٍ كنت قد علقته في السقف منذ أيام، تنهدت :«وأخيراً» أغمضت عينيَّ قبل أن أترك جسدي يهوي معلقاً في الهواء، رنات الهاتف بدأت تمزق الهدوء الموحش وكأنَّ المتصل قد شعر بأني مُقدمٌ على إنهاء حياتي، حاولت أن أصم أذنيَّ عنه وأركل بقدمي الكرسي فرفرف جسدي كورقة خريف، وبدأ صراعي مع نفسي التي رفضت الموت، أخرجت سكيناً من جيبي الخلفي وقطعت الحبل وهويت على الأرض، كنت قد وضعت السكين مسبقاً في جيبي لأني أعلم بأن نفسي ستعاندني في الموت أيضاً. كان الهاتف لا يزال يصرخ ملحاً لأن أستجيب له، وعلى الشاشة كان اسم حسام. أمسكت الهاتف:

- مرحباً حسام، قررت أن أكتب فصلاً آخر من كتابي، ليكن هذه المرة عن الخيانة، تعال لنشرب الشاي معاً اشتقت كثيراً للحديث معك.

★★★★

اعتزل من لا يرغب بك

الحياة محيط ضخم يلطمنا بأمواجه كيفما يشاء، ورياح القدر تعصف بأشرعتنا لتقذف بنا إلى شواطئ ما حسبنا يومًا أننا سنطؤها, أو أن تعلق بأقدامنا حبات رمالها، وأينما حللنا نحمل بين ضلوعنا قلوبًا أيّاً كانت، لن تغيرها الظروف ولا الأهوال، وستبقى على سجيتها مهما حدث.

كنت قد اعتدت بيتي الجديد الذي انتقلت إليه بعد طول ترحال، وبعد زمنٍ من الانفصال عن وطني، واخترت القرب ممن تربطني بهم قرابة الدم، ليؤنسوا غربتي وأشعر بينهم بالإلفة، ظننت أن لي مكانتي في قلوبهم, إن وطأتُ ديارهم, وأشرقتُ بوجهي نحوهم، إلا أني كنت أواجه صلابة معاملتهم وغرابة أفعالهم.

سكنت في ذات البناء مع قريبي، وفوجئت بأني حينما سألته عن بيت للإيجار، أنكر وجود أيّ منها في حيّه، وحينما رأيته وأنا أنقل أغراضي رمقني نظرة كلها بغض وازدراء، لكني بالمقابل لم أعاتبه واكتفيت بابتسامة مني زادته غيظًا. لم أعلم سبب نفوره، رغم أني لم أؤذيه ولم يتعرض له أحد من عائلتي، عزوت ذلك إلى فارق السن بيننا وطباعنا ربما كانت مختلفة. وحينما بحثت عن عمل وتوظفت في شركة اتصالات، وجدته معي في ذات الشركة،

لم يكلف نفسه في مساعدتي حينما كنت أبحث في الأنحاء عن عمل يكفيني ويسد حاجتي في الغربة، لكني لم أتوانَ عن تقديم المعروف له ولم أقابله بأفعاله.

ذات يوم اختارني المدير لمهمة خارجية، أقضي فيها ساعتين من الزمن وأعود لمنزلي باكرًا وأتقاضى عليه أجرًا، ولأن بيتي خالٍ إلا مني، لم ترق لي العودة إليه؛ رشحت اسمه وآثرته على نفسي ليقضي المهمة ويعود إلى زوجته وأطفاله وفي جعبته متسعٌ من الوقت ليراهم فيه.

أمسكت هاتفي وطلبت رقمه، على الرغم من جواره لمسكني، إلا أني ما وددت إحراجه بذهابي إليه، رغبت أن أختصر الأمر بالاتصال. بعد الانتظار جاءني صوته:

- نعم.
- السلام عليكم, كيف حالك عمي؟
- الحمد لله، تفضل.

أخبرته موضوع المهمة الخارجية، فقبِلَ العرض دون شكر وكأن المهمة قد أوكلت إليه هو.

لم أعر أهمية لردة فعله، بل كنت سعيداً في قرارة نفسي.

قضى مهمته في اليوم التالي وعاد مبكراً إلى منزله، وأنا أكملت ساعات دوامي كلها في العمل حتى المساء. كنت أعود وبيدي قطعتي خبز وبضع حبات من الخضار، وشيئًا من الطعام الجاهز الذي سئمته معدتي, إلا أني أتناوله لأسد جوعي وأحمد الله على رزقه.

لم يكن لي زوجة بعد، وأعيش وحيدًا دون أهل، اشتقت لموائد العائلة وطبخ الأمهات ورائحة الأطباق الشعبية الشهية التي حُرمت منها مذ غادرت وطني. كنت أكتفي برائحتها التي تخترق حواسي وهي تهرب من النوافذ، لا أعلم لماذا ظننت بأن جاري سيخصص لي وجبة من صنع زوجته ذلك اليوم لكن خاب ظني.

ذات صباح تأخرت في الخروج من منزلي لأني استغرقت دقائق إضافية في النوم، واستهلكت المزيد منها في ارتداء ثيابي، وحينما هممت مسرعاً فاتحاً الباب، وجدت نفسي أمام فتاة حسناء راعها وجودي، يبدو وكأنها خارجة لتوها من الباب الذي توليه ظهرها، تيقنت بعد ثوان بأنها ابنة جاري وقريبي وإني أراها لأول مرة منذ سكني بجوارهم. بعد أن تبادلنا النظرات، وكلّ منا قد فاجأه وجود الآخر، لملمنا شتات الشعور وتنحيت للوراء سامحًا لها بالعبور، هرعت مسرعة تهبط درجات السلم برشاقة غزالة، كيف لا وهي ذات عينين كعيون المها، وذات قدٍّ وكأنه نحت بيد فنان ولها جيدٌ

فتان. حاولت أن أغضّ بصري بعد الذي رأيته، وضاقت نفسي بسبب نظراتي واعتبرتها خيانة لجاري لأني اغتصبت بعينيَّ جوهرة بيته دون حق.

لم أعد أستطع منع نفسي من التفكير بها، ولا تذكر تفاصيلها التي علقت في ذهني، وكأن حبًا بدأ يسري في دمي، وينبض قلبي كلما مر طيفها في خيالي، ولأني أرغب في أن أجد خليلة وشريكة لحياتي ومؤنسة لروحي، ما وجدت خيرًا منها قرابةً وطباعًا وأخلاقًا، وكأن أمي قد دعت لي في ليلة القدر. عزمت على أن أطلب يدها من والدها وما ظننت بأن يرفض لي طلبي واعتقدت بأنه سيرحب بي باعتبار أني ابن بلده وقريبه وقد لامس أخلاقي في جواره وعمله، ولم أعتقد بأنه يكنّ لي في داخله ذاك الكره الذي لا مبرر له.

حينما جاء الموعد، طرقت بابهم ثلاثًا وأتاني الرد من خلف الباب بصوت أنثوي رقيق، هرعت دمائي على إثره تتسابق في عروقي وقطرات العرق تتصبب على جبيني، وغاص صوتي خلف حنجرتي خجلاً حتى أدركت نفسي واستدرجت صوتي ليخرج، وما إن علم والدها بوجودي خلف الباب حتى أبعدها وفتح لي.

قابلني بنظرات حازمة وقسمات وجه صلبة، ارتعد قلبي على إثرها، وحينما استأذنت منه بالدخول، قال لي:

- ما الذي تريده يا ابن فلان.
- طلبي لا يليق به أن يُسأل عند الباب.

تنحى إلى الخلف على مضض سامحًا لي في الدخول، جلسنا في غرفة الاستقبال واختار مكانه أمامي ما جعلني أتلعثم في حديثي.

- جئت لأطلب يد كريمتكم، ولي الشرف في أن أكون فرداً من أسرتكم.

انتفض واقفًا وكأنه سمع ما يكره، وأسرع نحو الباب مؤشراً لي بيده طالباً مني الخروج في الحال.

خرجت من بيته لا ألوي على شيء، وقد تأكدت من مشاعره السوداء نحوي، وصدقت كلام الزملاء حينما كانوا يخبرونني بأنني مكروه من قبله ويلفق علي كلاماً لست فيه. لم أكتف من الخروج من بيته فقط، بل غادرت البناء والحارة بأكملها، وفي العمل لم أعد أتقرب منه أو أواجهه وكأنه غير موجود البتة.

★★★★

الكنز المدفون

جلستُ تحت قبةِ السّماء السوداء المزينةِ بالنّجوم، والتي يتوسطها قمرٌ قد كشفَ ضوءه معالمَ المكان، كانت ظلالُ الأشجار الداكنة تتراقصُ مع الأضواءِ الفضية على الأرض. حفيفُ الأغصان وصوتُ بومةٍ استيقظت لتوّها، امتزج مع الصّوت الذي في داخلي وكلُّ التساؤلات التي أحاطت رأسي بإشارات استفهامٍ عشوائية: أين يمكنه أن يكون؟

كنتُ قد بحثتُ طوال النهار وبضع ساعاتٍ من الليل في كلِّ بقعةٍ من أرض البستان، وتحت كلِّ غصنٍ قد أراه، ربما وُضِع عن قصدٍ أو دون قصد، لكن كيف له أن يبقى بعد كلّ تلك السنين؟

نهضتُ جامعاً أطرافي التي شعرت وكأنها انفصلت عني، أنفض عن ثيابي بقايا التراب العالقة بها. شددت إزاري وهممت بالعودة إلى منزلي. بعد حمامٍ دافئ أرخى عضلاتي المنهكة، وأزاحَ عن رأسي الصّداع, كأسُ الشاي الساخن في يدي، يتسابق دخانه في لثم وجهي مع دخان سيجارتي. لمعت في ذهني فكرة جعلتني أهبُّ واقفاً باحثاً عن هاتفي، لأطلب رقم صديقي يزن، لطالما ساعدني في حلّ كثيرٍ من الأمور، ولأن يداً واحدةً لا تصفق، أردت أن يكون

اليد الأخرى التي تعينني في بحثي.

- مرحبا يزن، تعال إليَّ في الحال.

دون أيّ نقاشٍ كان مزروعاً عندي بعد نصف ساعة من طلبي له، أمليتُ عليه وصية جدي التي وجدتها في القبو بين أغراضه القديمة والتي كان قد ركنها في صندوقه الخشبي الذي أهمله والدي ولم يفتحه. بدا متحمساً جداً واعداً إيايَّ أنْ يكون عوناً لي، كاتماً سري.

بدأنا بقراءة الوصية والخارطة التي رسمها جدي وفككنا الألغاز التي فيها، لطالما كان يزن تلميذاً نابغاً في الرياضيات خلافي. في البستان، بدأنا بالتطبيق العملي للخارطة، متنقلين بين شجرةٍ وأخرى، نقيس المسافات بين الجذوع، ونرسم المثلثات والمربعات بالفروع، حتى أضناني التعب وهبطت تحت شجرة أرتجي القليل من الراحة، بينما يزن ابتعد عني مكملاً بحثه. رأيته يكمل حساباته يشير بيده نحو الأشجار ويقيس الأرض بخطواته حتى جثا على الأرض وبدأ بالحفر.

استدار نحوي، وحينما لاحظ أني أرقبه هبَّ واقفاً وتقدم باتجاهي، وهو يهز رأسه نافياً عثوره على شيء. فتورٌ اعتراني وقد ظننت بأنّه عثر على الكنز، اقترب مني أكثر وربت على كتفي

وأسند ظهره على جذع الشجرة بجانبي ووعدني بأن لن نبرح حتى نربح.

عدنا إلى المنزل وكلّ منا قد سافر مع أفكاره, وكنت قد وعدته بأن أتقاسم معه الذهب المدفون مناصفةً، فلم أشأ أن أقاطع أحلامه وانشغاله في الهاتف الذي بدا جلياً أنه يكتب من خلاله خطط المستقبل. نمنا ليلتها على أريكتين متقابلتين لشدة تعبنا، وحينما تسللت أشعة الشمس صباحاً من النافذة وداعبت جفوني؛ فتحتهما ووقعت عيناي في الحال على الأريكة الخالية من يزن.

- ربما عاد إلى بيته، همهمت في نفسي، ثم سحبت الغطاء عني وطلبته على الهاتف.

لم يأتني الرد من قبله، ظننتُ أنه لا يزال غارقاً في نومه. قصدتُ العودة صباحاً لأكمل البحث علّي أرى ملامح الأرض بوضوح أكثر وأستطيع تتبع آثار أقدام جدي التي رسمها بحرفة وبطريقة تعجيزية، لم أعلم ما الذي قصده في اعجازه للباحث عن كنزه، ربما كان كنزاً يستحق بالفعل. ما إن وصلت حتى وجدت سيارات الأمن تحيط بالمكان والشرطة بين الأشجار، خارت قواي وثقلت قدماي ولم أستطع التقدم أكثر.

لم يخطر ببالي أن يكون يزن وراء هذا الأمر، اختبأت خلف شجرة واتصلت به، أجابني على فوره، وبدا على صوته وكأنه استيقظ لتوّه.

- ما الأمر يا محمد؟
- كما سمعت لقد علمت الدولة بالأمر، ضعنا وضاع كنزنا؟

تفاجأ بما أخبرته وطلب مني أن أعود أدراجي، ولمّح لي بأنّ جاري العجوز كان يراقبنا طوال الأيام السابقة وربما هو من قام بإخبار الشرطة. صدقته كما كنت أصدقه دائماً وارتجيت أن يخرجني من هذه الورطة، رجلٌ محنك لابد أن يقنعهم بأن لا علم لنا بما دفن جدي، حيث أن القوانين هنا توجب بأن تعلم الدولة بكل ما دُفِن، وإلا دُفِنت سنوات عمرنا في السجن بتهمة التعدي على آثار البلد.

بقيت مكاني لم أتحرك وأنا أراقب ما يحدث، حتى لمحت يزن يقترب من الرجال ويشير لهم نحو الأرض تحت شجرة التوت الضخمة ثم انحنى ورسم لهم دائرة، ما لبث أحد الرجال أن قام بالحفر وأخرج صندوقاً أوقع قلبي لمرآه. هرعت مسرعاً نحوهم وليكن ما يكون، خانني صديقي الذي وثقت به، وأخبر عن كنزي، وبكل جرأة يتوسط رجال الأمن ويخرجون صندوقي. لمَ يا صديقي فعلت بي ما فعلته؟

ألم يعجبك أن نتقاسم الذهب مناصفةً أم أردت أن تلمّع صورتك أمام الدولة وتنال المكافأة وأخسر أنا كل شيء؟ وثقت بك يا خليلي كما كنت أثق بك في كل مرة، ورغم خياناتك المتكررة لي ، كنت أسامحك. لم أتوقع أن تصل بك الخيانة إلى هذا الحد. أكلم نفسي وأنا أتقدم نحوهم حتى رآني، وقف متسمراً في مكانه، باعتقاده أني عدت إلى منزلي كما طلب مني، وقفت لأرى كنزي المدفون ولو لآخر مرة.

قام أحد الرجال بكسر قفل الصندوق ثم فتحه وظهرت داخله أوراقٌ مطوية، لا مال ولا ذهب ولا مجوهرات، فقط أوراق. أخرج الرجل أول ورقة وفتحها وقرأ ما بداخلها ثم ضحك ضحكةً نقل عدواها إلى جميع الحاضرين عدا يزن الذي بدأ بمسح حبات العرق المتصببة على جبين. كان الكنز ثميناً بالفعل، وصايا قيّمة كتبها جدي وتركها لمن يجدها، تعلمت منها دروساً كثيرة، وأول وصية مكتوبة كانت: (احذر عدوك مرة، واحذر صديقك ألف مرة).

★★★★

الفهرس

مقدمة..... 2
الإهداء 2
حكاية ألم سورية..... 3
الأخوين 84
مولودٌ من بين الركام 88
ما وراء البحار..... 93
وإنه لحبّ الخير لشديد..... 98
التاجر والحكيم..... 103
رسمت حلمي 109
إليكِ أكتب..... 114
أنا معك..... 119
قيد الحب 124
اعتزل من لا يرغب بك..... 129
الكنز المدفون 134
الفهرس 139

الثالثة بعد منتصف الليل، وأنا لا زلت منكباً على أوراقي ألثم سطورها بقلمي مانحاً إياها بعضاً من نزيف ألمي، ثم أمزق جلَّ الأوراق التي أنهكتها بكلماتي لتهوي إلى مثواها في القمامة.

اعتراني يأسٌ شلَّ أركاني منذ أشهر، فقدتُ القدرة على نسج الكلمات، وعجزت عن البوح لأحد، وتوقفت عن الإنطلاق في قطار الحياة بعدما تعطلت عجلاته في محطة الخذلان والخيبة.

بتُّ أسير الأحزان وحبيس حبٍّ إنهار بعد أن بلغ ذروته، محطماً كل آمالي وكأن أساسه كان هشاً فلم يقاوم أكثر.

الكاتبة سهير محمد خير المصطفى من مواليد ريف حمص سورية ١٩٨٥، كاتبة قصصية وروائية لها عدة أعمال في كتب مجمعة ورقية والكترونية، حائزة على لقب كاتب الشهر ضمن أهم مسابقات دار بيلومانيا.

أول أعمالها رواية رأفة بي صادرة عن دار بيلومانيا.

AYLA
آيلا للنشر والتوزيع

آيلا للنشر الإلكتروني
تركيا - اسطنبول

آيلا للنشر الحر